حنّاء

حنّاء

رشا أبو السعود

تدقيق لغوي : هدى جادو

تصميم الغلاف : أميرة حسين

رقم الإيداع : ٢٠١٣/٢٢٢٥

I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٤٨٨- ١٢٩- ٧

دار اكتب للنشر والتوزيع

OKTOB.NET

الإدارة : ١٠ ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة.

المدير العام : يحيى هاشم

هاتف : ٠١١١٠٦٢٢١٠٣ - ٠١١٤٧٦٣٣٢٦٨

مكتبة اكتب : ٤٠ ش أحمد قاسم جودة من ش عباس العقاد ، خلف سيراميكا كليوباترا ، القاهرة.

هاتف : ٠١١١٤٣٢٨٥٢٥

E – mail :daroktob١@yahoo.com

Facebook : دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ، ٢٠١٣م

حنّاء

رشا أبو السعود



دار اكتب للنشر والتوزيع



إهداء

هذه المجموعة القصصية ما هي إلا رسائل شكر وعرفان لأصدقاء مدونتي : "قصص بالهمزة!!"...

أصدقاء قرأوا وقت أن كنت أستحي أن أكتب وأن أقرأ..

أصدقاء صدقوا إحساسي وشاركوني رؤية قصصي تحيا بقلوبهم...فصدقتهم..فصدقت قلمي..

أصدقاء تمنوا لي "الورق"...فتمنيت أن يكون بين أيديهم...فدعوت الله فاستجاب من فضله وكان لي ورق..

أصدقاء احتضنوا تصوراتي في بداية بداياتي...فلم أتوقف بل استمريت في تدوين قصصي القصيرة واحة وراحة لي بين أحباء لا يعرفونني...

(مياسي وكاندي ومريم وإيهاب الشنكوتي وإيناس وجوهري وباشا وحاتم صابر ورحال ولماضة وحميدي وسمر وأندرو...وأعزاء كثيرين آخرين)



حنّاء



هكذا عرف أكفـهن.. محنـاة بلونٍ نُحاسي خضّب جلدهن..

كل نساء قريته ذوات أكفٍّ ملونة.. كلهن سمراوات بلون شاطئ نيل أسوان الجميلة.. كلهن ذوات صوتٍ واحد ولكنةٍ واحدة.. كلهن يعشقن الأقراط الذهبية.. كلهن يتـشحن بأثوابٍ ملونةٍ من قمةِ رأسهن حتى كعوبهن المخضبة.. أيضاً.

رآهن مخضّبات نُحاسيات سمراوات يبرقن بأقراطٍ ذهبيةٍ كبيرة متدلـيةٍ وتغطـيهن أثوابٌ ملونة... عرَفَ فاقعَ الألوانِ حتى زهدها.

عرف "اللون" كثيراً كثيراً حتى صار لا يرى ألواناً.. كانت الألوان في عينيه هامدةً كلونِ حائط زنزانة نظر إليه مسجون مدى الحياة.

وكان عندما يرى بعض السائحين اللذين يطوفون بحارات قريته نادرا –لبُعد بيته عن مناطق الجذب السياحية في أسوان– يفقد الإحساس بالزمن ولا يفقه إلا ما يراه... كان يرى في

باهت بياض بشرتهم وباهت شعرهم الأشقر وقلة ثنايا أجسادهم- كان يرى بهم ألوان الطيف كلها..

فكان يتنعم بالنظر إليهم وكأنه في حديقة غنّاء في عز زهو الربيع.. لم تكن شهوةً يخص بها النساء.. كان استملاء بَصرٍ بالمختلف..

حتى أنّ في يوم مر عليه سائحٌ عجوز وزوجته ليتفقدا النقشَ البارزَ الذي حفره ولوّنه جده الكبير في دكان البَهّار الذي تمتلكه عائلته.. وبعد أن صوّرا الحائط.. ابتسما كثيراً وشكراه ومد الرجل يده ليصافحه.. فنظر مطولاً إلى لون كفه الأبيض الباهت الخالي من الخضاب.. ثم ناوله كفه مصافحاً بسعادة كبيرة..

كان فتىً في مقتبل العمر وكان يتمنّى أن يسمح له جده بالدراسة في إحدى المدن البعيدة.. وكان جده يحبه كثيراً ويرى فيه صورة أكبر أبنائه الذي مات وترك الفتى يتيماً.. فكان يرفض دائماً، حتى نجح الفتى بتفوق وحصل على شهادته الثانوية ثم أضرب عن الطعام حتى يسمح له جده بالسفر.. وسمح له الجد على مضض.

وهناك.. في أجواء البنادر الملوثة بالعوادم.. رأى أكفاً كثيرة لا تعرف الخضاب إلا عندما تتزوج إحداهن.. رأى كعوباً بيضاءَ بلا حُمرة أو سوداءَ جافة تدل على شقاءٍ تُصاحبه أتربة شوارع المدينة القاسية.. فتنفس مستمتعاً بألوان زاهية تملأ ناظريه..

ورآها ذات صباح تجلس على أحد أرصفة حديقة الكُــلّية.. وأحب قدمَيها الصغيرتين اللتين ظهرتا من حذاء لا يربط جانبيه إلا خيوطٌ جلدية ملونة تقيّد قدميها البيضاوين اللطيفتين إلى النعلين..

كانت بيضاء.. ذات شعرٍ بلون جذوع الأشجار يلمعُ تحت وهجِ شمس الصيف الساخنة.. وكانت ما إن رأته تبتسم للُطف تقاسيمه وابتسامته الواسعة ذات الأسنان البيضاء كشراع الشتاء..

لكنه مع الوقت عرف أنها صعبة المنال بقدر صعوبة موافقة جده على أن يتقدم لإحدى بنات المدينة البعيدة..

ومرض الجد.. وعاد الفتى إلى قريته.. وأصر الجد بقوة -رغم وهنه الشديد- أن يزوّجه.. وتم الاتفاق مع عمٍ له -لا يرتاح إليه كثيراً- على أن يزوّجه ابنته الحسناء السمينة..

وافق العم وأطرق الفتى غير معارضٍ.. حتى كان يوم الحناء، ذهب إلى بيت عمه القاطن بأول حارتهم ونادي على أخي العروس.. نظر في عينيه وهو يحبس أنفاسه اهتماماً.. ويتصبب عرقاً.. يُقلّص عضلات وجهه كأن ما يريد أن يتفوه به يصعب نُطقه من خطورة معناه.. فأوجس ابن العم خيفة وأنصت إليه في ذعر.

حتى قال: "استمع إليّ جيداً فلن أقبل في الأمر نقاشاً.. قل لها: لا حنّاء!"



ولم تَلمِسْ قدماها الماءَ

كان الليل قد انتصف... كانت ليلة تدلّى فيها الصيف قرب الشتاء

وكانت هي شاردة طوال الطريق.. لا تعلم ماذا تريد من وراء القيادة ليلاً بهذا الطريق المهجور والسفر إليه... القيادة ليلاً وسط أجواء غير آمنة...

كانت تعلم أنها لم تعُد تحبه... بل لا يأكلها الاشتياق إليه... وكانت خائفة... من ظلمة الطريق... من رؤيته بعد كل تلك السنوات... بليلة مثل تلك وبمثل هذا المزاج الحزين اللا واعٍ... وهذا الضباب الذي تكثف برأسها...

كادت أن تصل إلى مكانِ اللقاءِ عندما رنّ هاتفها مُعلناً اسمه وصورته... ردت... وجاء صوته بعيداً.. خافتاً.. غريباً بعض الشيء عليها.. وطمأنها أنه ينتظرها.. فلم تطمئن...

وصلت لتجده بسيارته... نظرت إليه نظرة خاطفة قبل أن يتحرك مشيراً لها أن تتبعه... كان عجوزاً... ليس عجزَ المتقدم بالعمر... بل عجزٌ غريب... وكأن روحه قد هَرِمَتْ...

كان عجزاً صامتاً وكأنه صورةٌ بالرصاص لوجهِ رجل قد رسم الزمان على وجهه مئات الخرائط...

تبعته بطُرقٍ خالية من المارة... طرقٍ عديدة أخذها بدوائرَ زادت من دوارٍ أحست به واقترن بمغْصٍ بمعدها لازمها منذ بدأت الطريق... الطريق إلى الماضي المؤدي إليه...

توقف أمام بوابة حديدية كبيرة... توقفت أمامه... نزل من السيارة ووقف منتظرا لها... لملمت أشياءها المبعثرةِ- كروحها- ونزلت إليه... تبادلا نظرة وابتسامة موجزة... لم تحمل من المعاني إلا إقرار تقابلهما...

صعد درجتين على للسلم... وداس على زر ففتحت البوابة... صعدت وراءه ودخلت من البوابة فرأت حديقة صغيرة.. أنيقة.. كل ما فيها يُشبع ذوقه ورغباته التي تعرفها عن ظهر قلب... كل ما بالحديقة كان لراحته.. بقليل من المبالغة الأنيقة.. تماماً كنفسه..

مشت وراءه حتى جلسا... نظرت بجانبها لترى حمام سباحة يلمع بألوان فسيفساءَ أزرقَ غَلــفت قاعه...

كان صوت المياه التي تتأرجح على درجات سلمه الدائرية يضيف لرومانسية الليل وسكونه رومانسية مفترضة! وظل صوت الماء يرن كأجراسٍ متناهية الصغر تتراقص بسحابة

تعتليها.. وكأنه صوت نجوم تتلألأ... وكانت تسمع الصوت الذي بات يتضخم برأسها... إلا أنه لم يحرك بها شاعرية لطالما اعتنقتها..

نظرت إليه.. مدققة به.. رأت ابتسامته رغم خفوت الضوء... عبّر لها عن شوقه... ولم تتحرك بقلبها مشاعر مماثلة... لمسها... فلم تتحرك أعصابها... لمسته... فتحرك إليها..

ابتعدت قليلاً... ونظرت إلى ملامحه ثانية.. حاولت أن تدقق النظر بعينيه... بحثت عنه فيهما... لم ترَ إلا إحمراراً ملتهباً ونظراتٍ زائغةً مموهةً ملأها دُخان حشيشه حتى أعماه!

حاولت اجترار مشاعر الماضي... حنان الماضي... شبق الماضي...

سألته:— عارف مرّ قد إيه؟

أجابها بابتسامة:— سنتين؟؟

أجابته:— خمسة!!

أجابها هامساً: -قَرّبي...

اقتربت لتريح رأسها على كتفه... استغربت رائحته... عطراً مختلفاً غير الذي أحبته...

لمست ما تبقى من شعره... لم يعبّر عن حبه للمساتها كما اعتاد...

لمس ظهرها... أسكت الكلام... حاولت أن تُسكت امتعاضاً لم تعرف مصدره... حاولت أن تبحث عن بقايا عشقها له... وخطر ببالها أن تسأل كيف ضحت بحياتها يوماً لأجله... كيف سكنت دموعها براحتيه سنيناً... كيف كانت بسمته شمسها وعيناه قمريها... إلا أنها أخرست السؤال..

لمس بطنها... فاحتضنته بقوة وكأنها تعتصر منه أي معنىً يقربها إليه... إلا أن ما تفجر بصدرها هو المعنى الذي خَلَفَهُ بداخلها... معناه الحقيقي لديها...

اعتدلت ونطقت همساً... وردّ عليها فحيحاً...

– أنا مش فاكرة الطريق لهنا... حتوه وأنا ماشية...

– الصبح حوصلك

–لأ... أنا حمشي دلوقتى

التفت قليلاً مشيراً بعينيه إلى حمام السباحة وقال مبتسماً:

– مش حنعوم مع بعض؟

– لأ...

– مفيش مايوه؟

- فيه...

- طيب إيه؟

- مش مرتاحة.. فيه حاجة... فيه حاجة مختلفة..

- لأ... بليز... بلاش فلسفة ورغي... قرّبي..

بهذه اللحظة ودت لو ضربته.. صرخت في وجهه.. مزقته.. لكنها فقط نظرت إليه ثانية.. وكادت أن تقسم أنه لا يراها... ربما لا يعرف من هي.. فعيناه الذهبية التي لم يفلح إحمرارها أن يطفئ بريقها تنظران إليها نظرة جائعة بلا شعور.. وابتسامته التي أظهرت أسنانه الناهمة بثت فيها شعوراً منفراً...

- مش عارفة إزاي... بس الليلة دي بس أنا شفتك بجد لأول مرة

- أنا مش فاهم...

- عينيك عينين ضبع... ريحتك ضبع... لمستك ضبع... اللي عملته معايا طول عمرك... ضبع..

وضحكت عالياً ضحكةً أخرجت قليلاً من ألم اختناقها..

- بصي... أنا معمي سجاير... تعالي نطلع فوق...

قامت من مكانها... نظرت إلى البوابة للحظات.. ثم عدلت وجهتها... وتبعته إلى داخل الڤيلا...

تعانقا للحظات... بلا حرارة... بلا حنان... وبذات الهمس... وذات الفحيح... واشتد الظلام... واشتد ألمها..

وزاد عماه... رفضت ألا تُرى ورفضت امتنانه لقدومها... فتركته فجأة...

فقد رأت جوهرة تلمع بالظلام... رأتها بعد طول بحث وتنقيب ويأس... فكان لابد من أن تتبعها..

تركته... ولم يناقشها هذه المرة... فرحلت...

وعادت بذات الطريق الخالي الذي فكك الدوائر عنها وأزاح دوارَها وخوفَها فصار مُرشدها للنور..

كانت تقود السيارة بلا خوفٍ من ليل... ولا قلقٍ من مخاطر... ولا رهبةٍ من ماضيها...

علمت أنها أوصدت علي أسطورته صندوق الشفاء...

فقد تَكَشف تحت مجهر الجوهرة... التي تكشفت تحت برودة عُريها بين يديه...

وباتت الحقيقة التي بنقاء طمي الأرض واقعاً تَصَدّر وعيها...

وتنفست حياة... عندما واراه ماضٍ رسم موتها ألف مرة...

عرفت أن الذنب ضروري أحياناً للتوبة عن سلسلة من الذنوب...

وظل يرن بإسماعها صوت الماء... الماء الذي لم تلمسه قدماها...

كالأسَدِ الرابِضِ بالباحَةِ



كُل ما بالباحةِ قصير... معروشات النخل... أسوار المكان... أحواض الزرع... شجيراته المورقة... وروده القليلة المتناثرة... كُل ما بالباحة قصيرٌ ويتأرجح بين الاعتناء الظاهر بنظافة المكان وبين عشوائية هذا الاعتناء،

فالأحواض ليست مستقيمة الصفّ... والورود ليست متقاربة الأغصان... والبلاطات ليست مستوية... والطرق المؤدية إلى مبنى المستشفى ليست ممهدة...

وتمثال الأسد الرابض بمنتصف الباحة لا تناغم فيه مع معنى المكان... ربما لأن صفار لونه باهت أكثر من اللازم... ربما لأن عينيه مطموستان... ربما لأن أنيابه المتآكلة ظاهرة

وكانت هي كالأسد الرابض بالباحة بلا تناغم ولا معنى إلا حقيقة وجوده الثابتة بقاعدته الإسمنتية...

كانت بيضاء بشحوب... كانت شقراء بعَجَز... كانت تلبس بنطالاَ شديد الضيق يخنق مؤخرهّا البارزة خنقاً... وكانت قصيرة،تماماً كالباحة... وكانت نظيفة بلا اعتناء... تائهة العينين رغم صِغَرِهما الثاقب...

تثق في شيء واحد... عنوستها رغم اشتياق الكثيرين لها... فقد كان شوقاً بلا هوى... بلا جدية تُرضيها... اشتياق إلى فرصتها الضائعة التي بنظرهم... سانحة!

كانت تثق في وِحْدَة اسمها الذي يرنو إلى الارتباط باسم رجل ما... وكانت تثق في وجودها بهذا المكان... عملها... كُلُ ما لها... كل ما لها ولأبيها الباقي منعزلاً بالبيت بعد وفاة أمها.

كان أبوها يعمل مُحاسباً بالمستشفى طيلة عمره الطاعن بالثمانين وحتى بلغ أقصى ما يمكن أن يبلغه بالوظيفة حين مرر إليها المهنة بذات المكتب العتيق ذي السقف العالي الذي تكاد الرقاب أن تنفصل لتبلغ طوله نظراً... وحين غادر مكتبه لآخر مرة وصّى عليها قريبه مدير المستشفى...

وعمل الرجل بوصية أبيها... فلم يعتقها يوماً من تحرشه المستتر... ولم يمهلها ساعة تعمل معه فيها بأمان...

ولم تعترض مارية... .لم تنظر إليه نظرة رفض... ولا نظرة لوم... ولا نظرة تُجَرِّؤه على المزيد... لم تكن تنظر... لم تكن لتزأر... فلم تخف إلا الرحيل عن المستشفى... لم ترتعب إلا لبقائها بالبيت ونيسةً لأبيها الذي احترف العبوس... وكانت تعرف أن المدير لن يقترب المزيد ولن يُعَرِّض نفسه لمواجهة...

لم تعرف يوما إلا مكمن العرين الصامت... المُصْمَت... الصَلْد... كانت تعمل وفقط... تتحدث للإجابة... تتجاوب للضرورة... وتعيش بمخيلتها صورة لا تحدث... يوم يقوم التمثال ليجري ويزأر فرحاً بالوليف بعيداً عن كل ما هو اصطناعي... عودةً لطبيعةٍ لم تفتقدها لأنها لم تعرفها... لم تتعرف على ملامحها ولا رائحتها المُحَرِّرَة...

فالطبيعة كانت لها كاللوحات التي تُزين جميع جدران المستشفى... لوحاتٍ يونانية قديمة... بها ساحاتٌ الحرب... غاباتٌ العشق... تماثيلُ مقطوعةُ الأذرعِ وأحياناً الرءوس... مرسومةٌ بألوانٍ قديمة كادت أن تأكلها حرارة الحائط ورطوبته لسنينٍ تفوق عمرها ومضاعفاته.

وكانت أيامُها وأحلامُها تتكررُ كل يوم... تستيقظ مبكراً كل يوم لتذهب لعملها.... وتَشُدُ عليها بنطالها كثيراً... مُعلنَةً ما يفور منها... علّها تجد من ينتبه إليها رغم بياضِها الشاحب وشقارها العجوز وقِصَرِها اللافت وعينيها الثاقبتين التائهتين وعُمرِها الأربعيني... .وكونِها... مارية!



آي لاينَر



تسمعُ صوتَ صياحِ الديك... تفتحُ عينيها المتعبتين... وتقول:

- حد لسّه بيربّي فراخ في الزمن ده؟!

تقولها يومياً... تقولها دون تفكير ودون أن تعي أنها تقولها يومياً... فهي تفعل كلَّ شيءٍ بذات الترتيب وذات الطريقة يومياً...

تفتح عينيها المتعبتين وتُعَلــّق على صياحِ الديك وتُلقي بالغطاءِ بعيداً عن جسدِها وتعتدل لتنام على ظهرها... مستلقية بلا حراك لبضع دقائق... تنظر إلى سقفِ الغرفةِ حيثُ المروحةِ التي تلف مصدرةً أزيزاً يفوقُ صوتَ الدّيك إزعاجاً... وتظل محدّقة بالسقف ذي الطلاء الجيري الأزرق الباهت... والمروحةِ ذات الأزيز... وباعوضة امتلأت شبعاً فاستقرت بأحد أركان الحائط ونامت بعمق...

ثم تقررُ أن تقوم... تجلس على جانب السرير ساندةً ذراعيها على حافته استعداداً لنهوضٍ يبدو وكأنه استعدادُ متسابقٍ لعدوٍ

سريع ينتظرُ تشجيعَ الجمهور... ثم تدفعُ جسدها إلى الوقوف... ثم تفتحُ باب الغرفة الصغيرة... تتجه إلى المطبخ حيث تكون أمّها دائماً في هذا الوقت من الصباح... تُقبلها في كتفها من الخلف قبلة حلت محل "صباح الخير" منذ زمن... فقد كانت تستصعب النطق صباحاً... فقط الديك كان له نصيبٌ من لفظها...

وتعودُ إلى الغرفة لتأخذَ مستلزمات الخروج... حقيبة صغيرة برتقالية بها أدوات الزينة... فوطة وملابس... مشط وفرشاة وسيشواراً بمستلزماته... وتتجه إلى الحمام... حيث تضع ما بيديها فوق غسالة يأكل أسفلها الصدأ... وتأخذ عودَ ثقابٍ لتفتحَ سخاناً يعملُ بالغازِ... وتضعُ غطاءَ رأسٍ بلاستيكي يحمي شعرَها من البلل... فقد كان ملتفاً حول رأسِها ومثبتاً بالعديد من دبابيس الشعر...

وتنتهي من الحمام... وتجفف جسدها وتلبس قميصاً داخلياً... وتفتح نافذة صغيرة بأعلى الحمام حتى تطرد البخار وتبردّ الجو... ثم تنظر إلى وجهها بالمرآة... فترى بقايا الكحل وقد سال حتى غطى نصف وجنتيها فتُغطي وجهها بكريمٍ رخيصٍ ولزجٍ وثقيلٍ ذي رائحة نفـّاذة... ثم تأخذ قطعةً من القطنِ الطبّي وتمسح وجهها ليلمع من أثر الكريم ويزول أثر الكحلِ السائل... ثم تغطي وجهها بطبقة من كريم الأساس تختلف كثيراً عن لون بشرتها الأسمر... ثم تنثر البودرة فوق كل وجهها حتى جفنيها وشفتيها...

ثم تمسك الآي لاينر الأسود اللامع... تمسكُه بيد فنان... بيد فنّان ماهر دقيق... وترسم حدوداً لعينٍ فرعونية... ليست عينها الصغيرة... ليست دائرية وليست رفيعًة الجفن... ترسم وكأنها ترسم لوحة لعين سيدة من خيالها... وتتقن الرسم... فتسحب الفرشاة إلى أبعد حدٍ ممكنٍ مقبول ليقابل طرف الحاجب... وتُدني الفرشاة إلى أبعد نقطة بِركن العين... تجيء وتذهب مؤكدة السواد والرسم ومُظهرة للون العين...

وتُكمل الرسم بباقي الوجه بلا اهتمام فكأنما كانت العين هي الشخصية الرئيسية لدور مسرحي أوبرالي تلعبه...

وتنزع غطاء الرأس... وتنزع ما أمسك شعرها بمكانه... وتُسدل سواده المفرود كالمسطرة... وتعيد عليه بالفرشاة والسيشوار... وتلف بالفرشاة خصلات أحاطت وجهها النحيل حتى يكون أكثر إيهاماً بالامتلاء...

وتضع أحمر شفاه يبرز حدة شفتيها الرفيعتان... وتبتسم لترى إن تلطخت أسنانها بشيء من أحمر الشفاه...

وتذهب إلى غرفتها... فترتدي زيَّ العمل... شراباً طويلاً شفافاً باللون الأسود... تنورة قصيرة ضيقة سوداء ذات فتحة من الخلف... قميصاً لامعاً أزرق وفيونكة سوداء تلف الرقبة.

وتنظر إلى جسدها بالمرآة... رفيعاً جداً كما هو مطلوب... ملابسها قصيرة جداً كما هو مطلوب... حذاؤها ذو الكعب العالي جداً المطلوب...

وتنزل من بيتها غير عابئة بنظرات الاستنكار التي تلاحقها... فقد اعتادها... كما اعتادت نظرات التفحص والشهوة من زبائن الفندق... واعتادت الهواء البارد الذي يلفح ساقيها شتاءً... واعتادت تقلص ساقيها من طول الوقوف بالكعب العالي لخدمة مرتادي كافيتريا الفندق... واعتادت أنها عندما تقدّم المشروبات على المناضد المنخفضة قد يُرى من فخذيها ما لا تود أن يُرى... لكنها اعتادت... وفقدت الحس... فقدت الاهتمام... فقدت الرغبة في تبيّن نوع النظرات وتبيّن مشاعرها نحوها...

ولم تكن تبتسم للزبائن بالقدر الكافي... كانت مستقيمة المشية والنظرة والأداء... تعلم أنه يمكن أن تحقق الكثير إن ابتسمت... لكنها لم تكن لتبتسم... فقط لأنها تستيقظ كل يوم على صوت الديك... فقط لأن جيرانها ما زالوا يربون الدجاج... فقط لأن الناموسة الشبعانة تنام بأحد أركان الحائط... فقط لأن غرفتها صغيرة وأمها تسكن المطبخ صباحاً... فقط لأنها تلف شعرها بالعديد من دبابيس الشعر... فقط لأنها فنانة آي لاينر... فقط لأنها ترتدي شراباً شفافاً طويلاً لتبرز سيقانها الرفيعة... لأن عينيها المرسومتين ليستا عينيها... ولأن ساقيها تؤلمانها من طول الوقوف لخدمة الزبائن... فقط... فقط لأنها لم تعد تهتم...

نَقْضُ حائطٍ مائلٍ



عالي الصوت... كالبوق

غليظ الوجه... كخليط صعيدي وروماني قبيح

دقيق.. كالساعة... كأدق ساعة بالكون... كساعة الكون

شاطر... ماهر... يعرف عن عمله أكثر من أكثر العاملين خبرة... أمهر من أمهر العارفين بالصنعة

مهندس.. وكل ما فيه مُهَندس... خطوته... تربيعة جسده المائل إلى القِصَر... تجعيدة شعره الخشن ذي فرقة مائلة على درجة 45°... استقامة كَيَةِ أكمام قميصه... شاربه المستطيل على خط شفاه غليظة.. داكنة.. لا تتفوه إلا علماً

طيب.. يَظهر أنه طيب.. ربما طيبة لا تُرى.. ولكن تُستَنبَط من انعدام اتيانه لأي فعلٍ به لؤم لأحد..

يظهر أنه يعرف شيئين بامتياز.. بيت وعمل...

وعمله البناء..

رأيته مرة فخوراً مختالاً يكاد يُضاهي نجوم السينما الأكثر غروراً... كان يمشي بتؤدة وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة الافتخار... فقد كان يلبس خوذة المهندس..

الخوذة له هي التاج.. هي المعنى.. هي بلوغ الحُلم.. هي الحُلم.. هي تعريفه.. هي شهادته.. هي أيقونة حكمته.. هي صولجان سلطانه على موقع إنشائي..

فهو حوتٌ يبحر في محيطاتٍ من أراضٍ جوعى لتصميمه وتنفيذه لتُفرغ ما بداخلها من ردم وتُرَسخ أعمدة هي تاريخه... وتحمل أحلام وحَيَوَاتِ ناس كُثُر...

وهو يبني مأمن الحُلم... مأوى الحَيَوَات...

وهو يرى في بناته بناء... بناءً غضاً فتّياً.. بناءً يغذيه من فطنته بحبات من حديد وحبات من صخور... فيستحيل بعض الحديد إلى زجاج ويتحول بعض الصخر إلى لادِنٍ من حرير... بناء جميل تتدور ثناياه فيرتعب خوفاً عليه... ويُطيل ساعديه دائماً ليحاوطه حمايةً ودفاعاً... ويختنق أحياناً من قصور علمه بهذا البناء غيرِ المتساوي غيرِ المُسَطر... لكنه يتنفس بحياة جوفه النابض بمنتهى الحياة... فيبتسم بطيبة... ويهمس له بأشعار الأمل... ويُقسم كل يوم ألا يُريح ساعديه أبداً...

وهو يرى في زوجته بناء.. بناء داخل بنائه.. بناء غاص في ذاته.. بناء يذوب فيه.. بناء يملكه ويمتلكه هو بدوره... فلا

يسمح لعينيه أن ترى ناطحات سحاب.. ولا يسمح لهندسته رسم تصميمٍ آخر... فلا تعنيه الڤيلات... ولا تستهويه تصاميم الغير... بناؤه هو القلب النابض فيه... الواهب لبناء الحلم الغض.. هو الدَوَار...

وهو خـــيِّر... يعمل الخير بحساب.. يعطي هذا لأن هذا يحتاج سنّادات... ويعطي لذاك لأنه لم يعرف السند في شبابه... ويرى مع العطاء طوباً من فضة يرتَصُ على طوبٍ من ذهب ليكتمل بيته بالجنة.

كانت حياتُه وذاتُه وفلذاتُ قلبه... بناءً...

وهو تحت نقضه لحائطٍ قد مال... مات!

وهَوَى بها الفراشُ



كان جسدها النحيل يحاول أن يحافظَ على توازنه لأنه كاد أن يسقط من أعلى الفراش... فراش أبيها... فراشٌ رائحته جديدة... ملمسه ناعم... فراش أبيها العائد لتوه من غياب.. فراش لا تعرفه جيداً ولم يطبع جسدها أثرَه فيه.. لأنها لا تزور أبيها إلا كل عام.. عام يكون فيه جسدُها قد كبرَ قليلاً.. كانت تنامُ على الحافةِ مُوليةً ظهرها إليه..

كانت تحبه كثيراً كثيراً... بل ربما كانت تشتاق إليه كثيراً فالتبَسَ عليها الشوق فظنته حباً... كان دائمَ الغيابِ وكان أصدقاؤها بالمدرسة يسألونها عنه مراراً...

أين هو؟ ماذا يعمل؟ سبب بعده؟ وكانت هي دائماً ما تُجمّل الحقيقة قليلاً... فقط بالقدر الذي يسمح لها بأن تكون فوق مستوى النقد والمعايرة... فقط بالقدر الذي يجعله بطلاً في أعين الناس وليس متهرباً من واجباته كأب.

فهو قبطانٌ (ليس عاشقاً للبُعد) وهو يجابه أعالي البحار بشجاعة (ليس نذلاً ترك زوجته وبناته) وهو يأتيها من أطايب

بلاد العالم ما يجعلها مثل الأميرة (وليس زوج أمها الذي يُطعمها ثم يذكرها كم أكلت).

وكانت الفتيات ينبهرن بحكاياها... وكان أبوها كل بضعة أشهر يعطيها ورقة مالية فئة عشرة جنيهات... لم تكن تخبر بها أمها إلا بعد أن تأخذها إلى المدرسة في جولةٍ دعائية بين الفتيات... فلم تكن إحداهن ترى تلك الورقة إلا في حافظة والدها... وبعد أن تطمئن على استقرار مُعدل الانبهار كانت تأخذ الورقة إلى أمها التي بدورها تلتقطها فرحة وتأخذ الفتاة من يدها وتتوجه إلى السوق فتشتري علبة سمن مستوردة وأرزاً وسكراً وشاياً ثم تعود إلى المترل لتتباهى أمام زوجها بأن أبا بناها "يصرف" عليهن.

وكان الزوج يسب أبا الفتاة... والفتاة تبكي في صمت... والأم تضحك فرحة بغيرته عليها من زوجها السابق... وتذهب الفتاة لفراشها لتبكي كما تشاء فتنام من تعب البكاء.

كان يحاول جسدُها النحيل الصغير أن يحافظ على توازنه... وكانت تحاول أن تبتلع الغصة التي كادت أن تخنقها... وكانت تحاول أن تتنفس لأن قلبها كاد أن يتوقف... كانت تشعر بخوفٍ وحزنٍ وعدم فهم لما يجري خلفها... كانت تحاول أن تبتلع الدمع وتمنع جسدها من الاهتزاز بفعل البكاء... كانت تنتفض... وكانت تَدَّعي النوم... وكانت تتمنى النوم السريع... وكانت

تفكر في إمكانية نهوضها وترك الغرفة... .وكانت تريد أمها أن تأتي لتأخذها من هذا البيت... وكانت تتمنى لو لم تفرح لأنها ستقضي الليلة عند أباها... وكانت تتمنى لو تموت زوجته الجديدة...

فقدت القدرة على التحكم في اهتزاز جسدها النحيل الذي حاولت أن تحافظ على اتزانه وقد نامت على آخر حدٍ للفراش... أجهشت بالبكاء في صمتٍ صموت... وانصهر اهتزاز جسدِها مع اهتزاز الفراش... ولفحتها همساتهما كهواء النار... وكان أنينهما يسقط عليها كأسواط حادة فيلهب ظهرها...

وسمعتها تقول: لأ... البنت... بس انت وحشتني...

وسمعته يقول: متخافيش...

وزاد الصوت والسوط والاهتزاز... وزاد ارتجاف قلبها خوفاً من شيء لا تدركه ولكنه يملأ كيانها بشعور "العيب"، "الغلط"، "الانتهاك".

دعت في صمتٍ وهي توصد عينيها أملاً في اختفاء إدراك لا تعيه: يا رب...

واستجاب ربها فأنامها... لئلا ترى... أو تسمع الأنين... أو تشعر باهتزاز...

نامت... فحلمت وكأنها تسقط من أعلى إلى الفراش...
فانتفضت انتفاضة سحبت روحها... ثم عادت لنوم ربها...

نقوشٌ من تُرابٍ

لم يدلف إلى داخل المسجد الأثري منذ سنين... فقد ارتبط نظره بالحارة الضيقة المؤدية إلى آثار تخطف القلب... ارتبط وجوده بوقع أقدام الزائرين للمكان... وارتبط ذكاؤه بقراءة وجوههم...

ارتبطت حياته بسائحين وسائحات احتاروا من أين يبدأون وإلى أي مدى هم مستعدون للغوص في آثارٍ لا تملأ الدنيا صخباً كالآثار الفرعونية... بل آثار لا يكتشفونها إلا عند تجولهم بشوارع العاصمة العتيقة... بِحاراتٍ خُطط لها أن تبقى أثرية تحملُ من عبق المعمار الإسلامي الكثير من السحر والعظمة والدفء...

سائحون يقفون أمام مأذنةٍ رائعة النقوش وقبابٍ لامعةٍ خضراءَ وتفاصيلَ تحكي بها الأحجار آلافَ القصص الصامتة، يعرف هو من عيونهم أنهم مأخوذون إلى عالمٍ لا يعلمون عنه شيئاً... فيهب هو كالفارس المنقذ ويتقدم إليهم بجسم أنيق ونظرةٍ صافيةٍ ولغةٍ سليمةٍ ومظهرٍ يحاكي ثقافتهم... ويذيقهم جملتين من علمٍ وخبرة، فيطمئنون إلى ما في صدره من دفءٍ مشابهٍ للمعمار

الذي يحتضن ضفتي الحارة بالكثير من النقوش والأحرف العربية والتجاويف التي تكاد تأخذ الزائر من يده في رحلة عبر الزمان...

وكان هو يعرف قيمة موهبته.. يعرف أن حظّه وإن كان عثراً في الطفولة فقد خدمه كثيراً عندما شبّ...

لم يكن أبوه قاسياً... ولا أمه... لم يكونا مثل كثير من آباء وأمهات أصدقائه... لكنهما كانا ضعيفين... ضعفاً أنهكه وأفقده الصوت أحياناً...

كان أبوه يعمل في أحد دكاكين المنطقة التي تخصصت في بيع مشغولات نُحاسية... لم يكن عاملاً ماهراً... لم يشتغل بالنحاس.. كان فقط يبيع للأجانب بلغة إنجليزية فقيرة ولغة فرنسية أفقر منها...

كان أبوه متخاذلاً... يتقبل إهانات صاحب الدكان بكثير من الابتسام وكأنه على عهد بمقايضة الإهانات بكثير من الرياء...

وكان صاحبنا طفلاً يحب أباه... فكان يجلس على الرصيف أمام الدكان... وكان يسمع أباه وصاحب الدكان وكان يلتفت برأسه ليرى أسنان أبيه شديدة السواد وهي تتلعثم في ريق الرياء والابتسام الكاذب...

وكان يجرى سريعاً ليقضي لأبيه طلباً... وكان يركض أسرع ليقضي لصاحب الدكان مطلباً... وكأنه يريد أن يتفوق لعل

الرجل يلين ويرحم أبيه قليلاً... لكن الرجل كان قد أدمن ابتسامات العامل الراضية بإهاناته فكان لا يرحمه بل يجزل العطاء للصغير فيعطيه بقشيشاً لم يتمنَّه أبداً...

وشب الولد وقد أخذ عن أبيه مهارات التعامل مع الزبائن وأخذ عن ابنة الخواجة شارل– صاحب دكان المشغولات الذهبية– إنجليزية سليمة وكياسة التعامل مع الأجانب وبعضاً من الحب ونشوة المُراهقة، وأخذ عن أمه عينين سوداوين جميلتين بهما بريق مارق ولكنه هاديء وبشرة بيضاء وشعرٍ غزير لامع...

شب الولد وقد تعلم من رؤية الزائرين كيف يمكن أن يرتدي أنيق الثياب بأقل تكاليف... شب وعلم أن حظه كوّن "رأس ماله" من قبل أن يعمل فيه...

وكان ينظر ليرى الزائر التائه يُهيام سحر القاهرة الفاطمية العتيقة فيطمئنه ويدله ويحكي له عن تاريخ الأثر وكيف بُني ومن وراءه... حكايا الجدران والنقوش والكتابات العربية التي حُفرت بالأحجار القابعة بحاراتٍ ضيقة...

وكان ينتظره فتى آخر أمام كل مبنى... يتسلم منه الزائر ليكمل رحلته داخل المبنى... وكان الزائر يستسلم ليد الفتى الآخر...

وعندما ينتهي كان يجد صاحبنا منتظراً بالخارج ليعرض عليه غداءً مصرياً على أنغام العود... فيفرح الزائر وكأنه تلقى دعوة لأكل قطعة من الآثار ليحملها بجوفه أبدا...

وحين ينتهي اليوم قد يعود صاحبنا لذات الطريق محملاً بعملات غريبة أو قد يحمل العملات بيدٍ وفتاةٍ شقراءَ لا تخجل من ساقيها باليد الأخرى.. فتاة تمشي طربة لأنها ستحمل في جوفها قطعةً من الآثار أبدا...

كان صاحبنا يختنق من داخل المباني... وكان يشعر أن الجدران تثقل على صدره...

ربما كان يختنق لأنها العالم الوحيد الذي يعرفه... العالم الوحيد الذي يمكن له فيه أن يكون مميزاً وناجحاً... ربما لأن جدرانَ الآثار قد شهدت ضيق الطفولة وتمرد الشباب على واقع يكون فيه هو- صاحب الأثر، خادماً لزائر الأثر... ربما لأن جدرانها سميكة جداً وهائلة جداً وقابعةً بحياته مهما اختنق منها...

كان اختناقه رمزاً وكانت الجدران رمزاً وكان هو بالمكان... كنقوش من تراب حفرت لنفسها معنى على جدران آثار عظيمة...

حارٌّ هنديٌّ



إنه رجل لم يعرف من الدنيا إلا بعض المسامير والأسلاك، حيث عمل فنيَّ مبرداتٍ منذ ترك الثانوية الحرفية قبل حصوله على الشهادة بشهر واحد.

إنه رجل لم تعرف يداه أبداً نعومة ولا قدماه معنىً للراحة... لم يعرف إلا أسرته الصغيرة المكونة من أم وأختين وأخ.. ومُعداته... بل أكاد أجزم أنه لم يعرف معنىً حقيقياً للسعادة إلا يوم دفع مدخرات عامين كاملين ليبشر والدته برحلة العُمرة التي طالما حلمت بها ويوم اشترى حقيبة المعدات الكاملة المستوردة... والأخير كان يوماً لا ينسى... الأخير كان يوما شعر فيه وهو يمشي بزهو حاملاً الحقيبة أنه أهم "باشمهندس" في مصر... ولقد أراد دائماً أن يكون مهماً... ذا شأن... شخصاً تتناوله أحاديث الناس ويتخذه الآخرون مثالاً وقدوة... لكنه لم يستطع.

إنه رجلاً يظل يعمل ويعمل حتى يستوقفه الناس معلنين عن احتياجهم للراحة... وهو يعمل ويعمل حتى لا يجد ما لا يعمله.

إنه رجل لم يعرف أبداً أحلام اليقظة... بل نادراً ما تأتيه أحلامٌ بنومه... وهي دائماً ما تتعلق بأبيه رحمة الله عليه يبتسم له أو يأخذ بيده... وقليلاً ما تكون الأحلام ناعمة... حنونة... لونها زهري... رائحتها وردية... همسها عذب... قليلاً ما تكون أحلامه عن امرأة كالحلم... تداعب شعره ويريح رأسه على فخذها... امرأة يرى بعينيها ابتسامة دائمة وقبلة شهية ودفئا محببا يلوذ فيه بالفرار.

هذا الرجل شده زميله شداً حتى يترك العمل بخطوط تكييف الهواء المركزي الخاص بالمستشفى الجديد، ليشاركه الطعام... فقد قرصه الجوع حيث تعدت الساعة السادسة مساءً وهو بدون طعام.

– طب إنت عايزني ليه أصلاً؟ ما تبعت الواد محمود يجيب لنا لقمة من أي حد قريب وخلينا نكمل شغل.

– يا عم بَشبشها كده الله يكرمك... عايزين ناكل لقمة جامدة بمناسبة الشغلانة الحلوة دي... قوم بينا نروح مطعم بقى متبقاش خنيق

– مطعم إيه يعني؟ أنا معرفش مطاعم هنا... يا عم دي حتة عِليوي

– تعالى بس... أنا شفت مطعم جامد وأنا طالع وقريب يعني مش حنروح بعيد... حناكل ونرجع نكمل شغل

– مطعم جامد ده حيبقى بكام يعني

– يا سيدي ما إحنا لسه عاكمين مبلغ كنا بنشتغل به سنة قبل كده... بر نفسك يا صاحبى... أقولك؟ عليا الغدوة دي

– يا عم لا عليك ولا عليا... يلا بينا

كان صديقه كالأطفال... يكاد يقفز مع كل خطوة من السعادة... وكان هو بلا تعبير... لا سعيد ولا يظهر عليه الضيق وهو يحاول اللحاق بخطا صاحبه وهو يعبر الشارع...

توجها إلى بناية مقابلة للمستشفى على الجانب الآخر من الطريق... وهمّا بالدخول عبر بوابة خشبية يبدو عليها القِدم.. كانت سميكة جداً وثقيلة جداً.. تُحليها مقابض وأشكال نحاسية كثيرة... كادا أن يعبراها لداخل المطعم إلا أنه توقف لحظة... ناظراً لأعلى... ثم لصديقه... وكأنه يستجديه بآخر لحظة أن يتركه يرحل... لكنه امتثل لجذبة صديقه له للدخول.

كان المكان كبيراً... مقسما إلى أربعة زوايا... بكل زاوية مجموعة مناضد وكراسي محلاة بأقمشة مطرزة بلون خاص بها... تفصل كل زاوية ستائر سميكة مخملية مطرزة...

انبعثت رائحة بخور غريب... غير التي تحرقه أمه كل يوم جمعة... استفزته رائحته... ودخانه الكثيف غلف الأجواء

بسحابة رمادية فبات المكان كأنه فيلم سينمائي من الأفلام التي يراها بالأعياد حين يضطره العُرف إلى عدم العمل.

مشي هو وصديقه مشدوهين ومأخوذين بالمكان... لم يختارا زاوية للجلوس بل جلسا في أقرب منضدة... وكانت منضدة دائرية عليها مفرشاً أرجوانياً يحاكي لون الستائر وفرش الكراسي...

نظرا حولهما باحثين عن أحد يطلبا منه الطعام... أشار صديقه إلى رجل يرتدي عباءة قصيرة وسروالاً وعلى رأسه عمامة صفراء... وأتى الرجل وحياهما بانحناءة بسيطة وسلمهما قائمتين للطعام ثم رحل بعيداً في خطىً بطيئة وكأنه يخاف أن يكسر نغم المكان ونُظم حركة الأبخرة العطرية...

كان كلامهما مقتضباً وهامساً... وضحك صديقه...

– هو احنا بنتوشوش ليه هي هي هي هي

– مش عارف... بس المكان ده غريب أوي... أنا مقلق منه

– إيه يا عمنا ده مطعم... يعني مَم وهَم وبس

– بس فخم أوي.. يا ابن المجنونة... ده إحنا حنكع مبلغ وقدره... بقولك إيه... ما تيجي نمشي

– وحد الله واختار حاجة تاكلها يلا وحياة رحمة أبوك ما تنكد علينا ع المسا

- ماشي ماشي إنت حتقفش... نختار...

- أنا حاخد الطبق ده... شكله جامد... لحمة ضاني ورز وحركات... وكمان مكتوب إنه حار بالبهارات الهندية

- هندية هاهاها... ماشي... طب آخذ زيك عشان معكش أنا وأختار حاجة تطلع عكننة

- لا يا ذكاوة... اختار حاجة تانية تنويع... عشان لوطلعت مضروبة متبقاش باظت من كله

وعلا صوتهما... وضحكا... وجاءهما الرجل ذو العمامة الصفراء.. ودَوّن طلباتهما ورحل متأنياً كما جاء.

كان المكان شبه فارغٍ وكانت المناضد فارغة اللهم إلا من مجموعة من الشقراوات ومعهن فتىً إفريقي جالسين بالزاوية الزرقاء... يتناولون طعامهم بهدوء مستمعين لصوت القيثارة الهندية التي تملأ بصداها المكان...

ودمر صوت أغنية "أركب الحنطور واتحنطر" التي جعلها صديقه رنة هاتفه رونق المكان... فسارع الصديق إلى الرد وترجل خارج المطعم حتى لا يحطم صوت شجاره مع زوجته جمال المكان.

وبقي وحده... يشاهد ما حوله... ودار بنظره معجباً بالمكان... وفكر بعمله وشعر بالامتنان أن الله قد رزقه كثيراً في

الآونة الأخيرة... وابتسم حين أيقن أن بجيبه الكثير الذي يمكنه أن يتناول طعامه في محال لا يرتاده إلا عِلية القوم... والمهمين منهم... بل تعجب أن هناك مطعما هنديا بمصر... ونظر حوله ثانية لتستوقفه لوحة كبيرة معلقة على حائط بخلفه...

كانت ذهبية... ظن أنها مرعبة... كانت صورة فتاة بعشرة أذرع... كل ذراع نوع من الأسلحة... ما بين خنجر وسكين وسيف وغيرها... ترتدي تاجاً كبيراً مرصعاً وكل ما فيها ذهبي... يظهر من تحت ثوبها أسد حول عنقه قيد ذهبي مرصع... ويقضم فخذ فارسٍ قد طعنته الفتاة برمح في قلبه... وقد هَوَى الفارس وهَوَى حصانه من تحته.

- أعوذ بالله... يا ساتر يا رب... إيه المكان العجيب ده... وده أكلهم حلال بقى ولا إيه الهنود دول...

سمعه ذو العمامة الصفراء فقال:

- حلال يا فندم... البضاعة مصرية

- الله يطمنك

- عجبتك اللوحة؟

- أعوذ بالله... عجبتني إيه... دي سفاحة ولا أخطبوط ولا أم أربعة وأربعين دي؟؟

- دي من آلهة الهند اسمها دورجا

- يعني قصدك ملكة يعني؟

- لأ إله

- أستغفر الله العظيم... إيه الكفر ده...

ابتسم الرجل ومشَى الهُوَيْنَا مبتعداً عنه... أما هو... فقد شعر بنعاسٍ مفاجئ... حاول أن يرى صديقه إلا أنه لم يكن ظاهراً... أراح رأسه على يده وظل يحسب تكلفة جهاز أخته المرتقب... فقد طالبته أمه بالكثير... وهو يملك الكثير الآن... لكنه سيحاول إدخار بعض المال حتى يتمكن من أن يهدي أمه رحلة الحج التي تحلم بها...

وربتت يدٌ على ظهره... استدار ليجد فتاة وضعت يدها على كتفه... لم يقوَ على النهوض... نظر إليها متعجباً... صامتاً... مأخوذاً بابتسامتها الهادئة... ونظرتها الحنونة... جلست على كرسي بجانبه... ووضعت يدها على يده... أخذه كل شيء... يدها، الابتسامة التي تكاد أن تفقده وعيه... رائحة البخور الذي قوِيَ دخانه... ثوبها الحريري الشفاف... عيناها شديدتا السواد... كان يرغب أن ينطق... ليقول لها من أنت... أو يطلب منها الزواج فوراً وبغير تمهل... لكنه لم يفتح فاهُ... خاف أن تتبخر هي... خالها حلما لم يود الإفاقة منه.

أشارت الفتاة لذي العمامة الصفراء فجاء بخطىً سريعة وابتسامة واسعة... مال عليها لتهمس في أذنه بشيء... ورحل

مسرعاً... وعاد بلمح البصر ووراءه فتىً قصير القامة ضحل الصدر يحمل صينية كبيرة... رصّا ما عليها أمام الفتاة ورحلا.

لم تفارقها الابتسامة ولم تفارق عينيه بنظرها... وكأنها تحدثه بلغة صامته حروفها نظرات... سحبت يدها ببطء من على يده... تناولت قطعة لحم بأصابعها ولقمته إياها... مضغ مشدوهاً... لسعه الحارُ الهندي... غمرته لذة الطعم ولهيب المذاق... تناولت أرزاً بيديها وأطعمته إياه بيد واليد الأخرى استراح طرف كفها تحت ذقنه حيث التقطت ما سقط من حبات الأرز الكهرمانية... ظلت تطعمه أشكالاً وأصنافا من حارٍ أحمر... وحارٍ أصفر... ظلت تطعمه خبزاً كأنه السحاب... ظلت تلقمه ابتسامات وبهارا ونظرات حتى امتلأ... فأمسكت إبريقاً به حليب جوز الهند وسقته... فشعر بأنه في الجنة... بل كان شبه متأكد أنه قد مات وكافأه ربه على بره بأمه فأرسل له أجمل الحور العين لتطعمه وتسقيه من نهر الجنة...

ابتسمت الفتاة أكثر وكأنها قرأت أفكاره... ثم بللت قطعة كتان في طبق ماء تطفو على وجهه وريقات ورد... ثم مسحت بها فمه برقه.

ابتسم وهم أن يقول شيئاً إلا أنها لمست شفتيه بإصبعها حتى لا يقول شيئاً... والتقطت من جانبها وسادة صغيرة مخملية

أراحتها على ساقيها.. وأسندت رأسه عليها ثم ربتت على كتفه وكأنها أم تساعد طفلها على النوم.

حاول أن ينفض الذهول والراحة والسعادة التي يشعر بها... وأن يتكلم ويسأل ويتحرك... إلا أنه لم يستطع... لم يستطع إلا أن يمتثل لهدهدة الأميرة الصغيرة... وبات النوم إلى جفنه أقرب من وريده...

ونام... على إيقاع ربتتها الحنونة... ولم تتوقف هي عن التربيت... ولم تغير الإيقاع..

فربتت

وربتت

وربتت

وخبط على كتفه الصديق

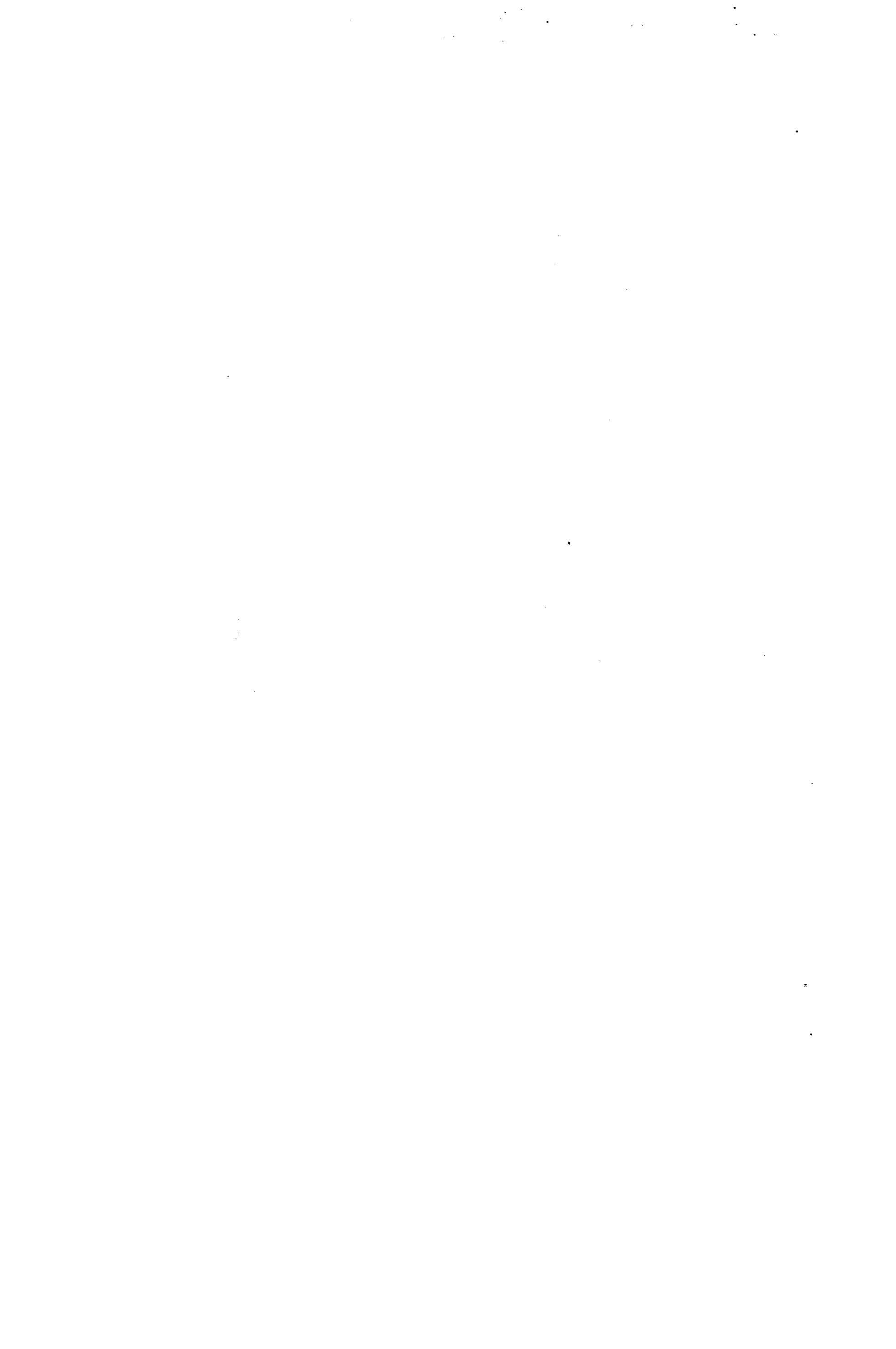
- يا عم فووق أبوس إيدك عايزين ناكل...

حاول أن يفيق... يتذكر ويتحقق... نظر حوله باحثاً عن الفتاة... حاول أن يفهم كلام صديقه الذي لم يتوقف عن الكلام بالرغم من التهامه طعاماً كثيراً... لم يستطع فهم شيء... بل ظل يشعر أنه تائه... مذهول... مزلزل.

حاسب صديقه على الطعام متأففاً... وقبل آخر خطوة تفصله عن الباب سمع صوتاً عالياً انتفض على أثره...

زئير أسد!

تدلي



أهوى المراقبة من بعيد... أهوى النظر ومحاولة فهم القصة وما وراء المظهر الجاف الخاص بشخصٍ غريب... أهوى النظر بعينٍ لا تتشتتُ بما يصطنعه الآخرون... ففي النهاية، لم أكن أملك إلاّ النظر واجترار الوَنَس من حكايا أفكاري.

ورأيته من شرفتي المطلة على جراج المصنع... كان يقف وقد خارت ركبتاه عن حمله باستقامة فبدا أكبر عُمراً مما كان...

أعرفه منذ جاء شاباً طموحاً ليعمل بقسم المبيعات بالمصنع... كما أعرف كل من يعمل بالمصنع وتسمح ظروف عمله بأن يمر بالجراج الخاص بالسيارات التي يصنعونها...

لم يكن عجوزاً أبداً... ولكن وقفته التي طالت لأكثر من الساعة وهو يشاهد تحميل صناديق قطع الغيار ويشاهد العمال وهم ينظفون السيارات حتى يتم عرضها بواجهة المصنع أصابتني بحيرة...

فقد وقف وقد خلت نظرته من أي معنى... كأنه سابحاً في دُنيا أخرى... وقد تقوّس ظهره ليظهر تدلّي بطنه إلى الأسفل...

كان هندامه نظيفاً ومُعتنى به... قميصه المقلم نظيفاً ومكوياً... بنطاله أنيقاً... حذاؤه لامعاً...

لكنه كان شارداً... وليس حليقاً كعادته...

فكرت: تُرى ماذا به؟؟ هل مَلّ العمل؟؟ هل يفكر في مشاكلَ مع الزوجة؟؟ هل لديه همومٌ؟؟ هل يشعر بأن طموحه يهوي إلى هوّة لا يراها؟؟ هل ينافسه الآخرون؟؟ هل سيتم طرده من العمل؟؟

كان من الرجال اللذين ما أن تراهم تشعر بأنهم سيكونون ذوي شأن عظيم... كان له سحر خاص... ثقته بنفسه ومشيته الرصينة وحركات جسده غير المبالغ فيها وأناقته...

لولا تدلّي بطنه لأصبح كاملاً... لولا ضعف ركبتيه عن حمل جسده الطويل باستقامه لكان كاملاً...

ربما كان مخدراً بسيجارة ملفوفة... أو كان مغيباً بفعل أقراص ملعونة... وقفز قلبي خوفاً عليه... ففكرت بأن هلاوسي مستحيلة... إنه رجل عامل، يكدّ ويتعب يومياً من الثامنة صباحاً وحتى قرب منتصف الليل... وفكرت: متى يعيش؟؟ متى يخرج ومتى يضاجع ومتى يلهو مع أولاده؟؟ متى يضحك ويرى فيلماً كوميدياً فتظهر أسنانه التي لم أرها من قبل؟؟

متى يحيى؟ أيفعل كل هذا في يوم الاثنين؟؟ يوم الإجازة الوحيد لديه؟؟

أشفقت عليه...

مسكين هو... مسكين أن يكون به ما يجعله شارداً يشاهد العمال ينظفون والحمّالون ينظمون الصناديق وهو لم يتحرك قيد أنملة وقد شارفت الساعة الثانية على الانتهاء...

ربما كان يود لو كان جالساً مكان صاحب المصنع... جالساً بكرسيه الوثير بمكتبه المكيّف بجانب الخزينة التي تكاد تضجَر مما ارتص بها من أموال... ربما تمنى أن يملك مصنعاً مشابهاً... لا... مصنعاً صغيراً... فهو من المؤكد قد تمكّن من إدخار بعض المال...

هل يكفي ما تم إدخاره ليتمكن من امتلاك مصنعٍ؟؟ ربما لو كان صغيراً جداً... ربما تمنى أن يكون وكيلاً لمصنع... ربما اتفق مع أحد أصدقائه على فتح مكتب وكالة للسيارات... ربما فتحه بالفعل... ربما حقق نجاحاً... ربما خدعه صديقه واضطر إلى ترك الشراكة والعودة للعمل بالمصنع...

ربما خاب أمله... ربما لهذا تدلّى...

تمنيت لو أحدّثه أثناء تناول كوبين من الشاي بذات الشرفة التي أراه منها يومياً على بُعد طابقين...

أستغرب كثيراً أنه أحياناً ينظر إلى أعلى وتلتقي أعيننا إلا إنني لا أشعر بأنه رآني... هل من المعقول أنه لم ينتبه يوماً إلى من ينظر إليه من أعلى طيلة السبع سنين الماضية!!

هل علق أحد الزملاء يوماً على وجودي الدائم بالشرفة ونظري إليهم؟؟

لم يلمحني أيٌّ من العاملين طيلة السنين الماضية!!

وأنا على بُعد طابقين!!

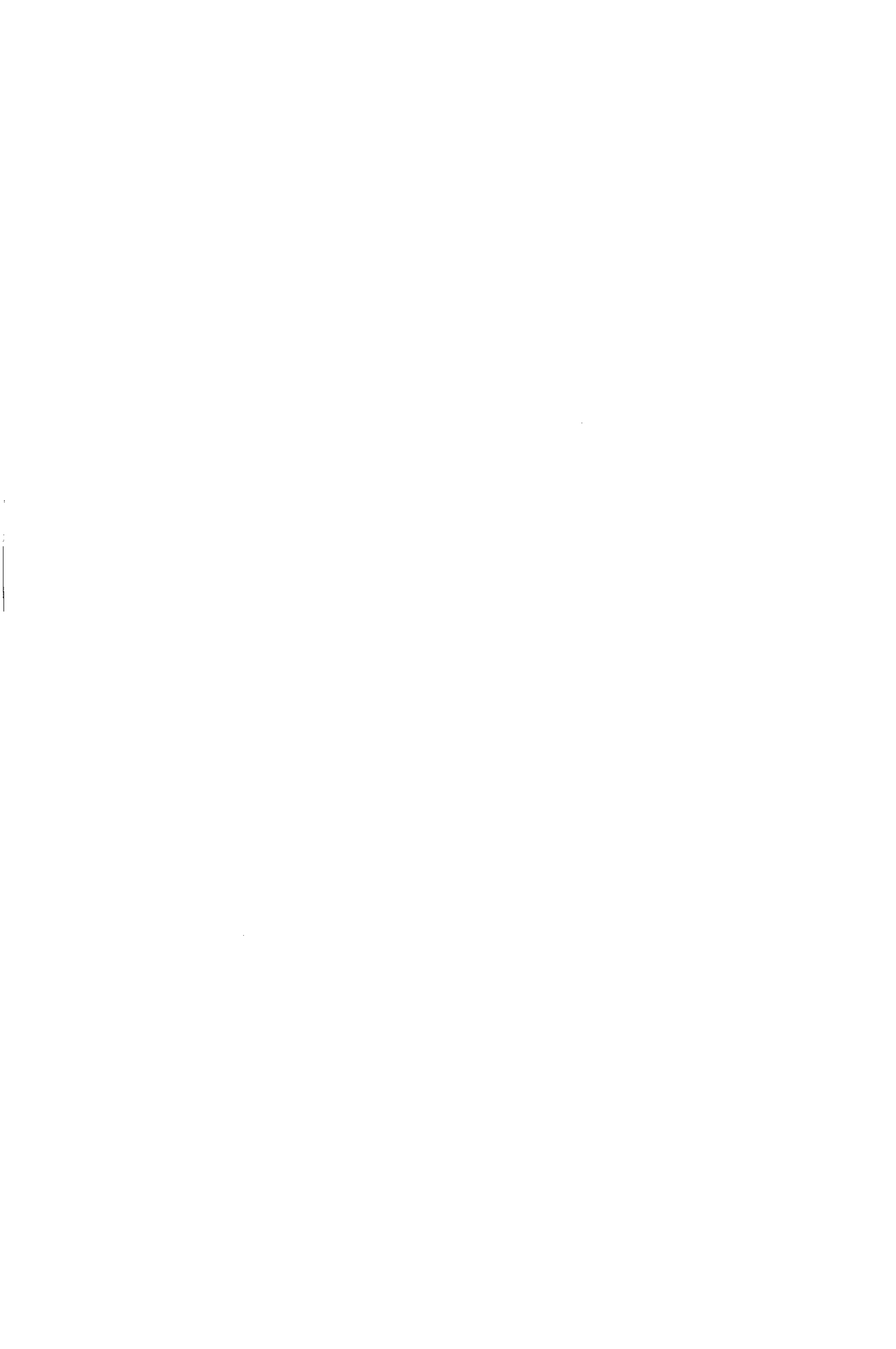
ربما لهذا تدلّت بطن الفتى الوسيم... لأنه لا ينتبه لما حوله... ربما لو أفاق ونظر وتفاعل مع محيطه لكان متماسكاً ذا ساقٍ قوية تحمله في أناقةٍ وشموخ...

ربما تدلّى مخه أيضاً فأصبح آلياً روتينياً يتحرك في الاتجاه المطلوب دون تذوّق للحياة...

فقط لو نظر إلى أعلى... فقط لو رآني حين ينظر إلى أعلى...

فقط...

سرقةُ عمرٍ منتظمٍ



أفخر بأن حياتي منتظمة... كعقارب الساعة... كدقات قلبٍ شابة يافعة... كضربات أجنحة سنونو... كتنفس زوجتي وهي نائمة بعد عناء يوم طويل.

لم يفلح كدحي وغوغائية الناس من حولي في تغيير انتظامي... لم تنجح فوضى بلدي في إثنائي عن مهامي...

لا ضوضاء حارتي التي تكاد تنهار من أحمال أناس تكدسوا فيها ومنها، ولا زحام الأتوبيسات العامة التي تحملني من بيتي لتلدني بمحل عملي يومياً ذهاباً وإياباً، ولا بُصاق مديري المتطاير دائماً، ولا ثرثرة زميلتي هاوية الكلمات المتقاطعة التي تصر على مشاركتنا لعبتها بصوت أعلى من صوت البوق يوم ينادي للحشر... لم يفلح هذا وغيره كثيراً في تغيير مساري...

فقد كان هدفي واضحاً... جلياً... يملأ عيناي وقلبي وفكري... فلا أحسب إلا به... ولا أُقيم إلا له... ولا أبني إلا عليه...

وهدفي كان هدف كل موظف محترم استحق لقب "أستاذ".

فمنذ حصولي على شهادة البكالوريا كنت قد نويت أن ألتزم بالوظيفة التي وعدني بها عمي إمام... وحقاً... ماذا يريد المرءُ سوى بيتٍ يأويه ووظيفة يعيش منها أثناء شبابه... حتى إذا بلغ الستين استحق الراحة والمعاش بلا عمل... التأمينات تكفل ذلك... وكنت أحسب كل شهرٍ بعد أن توظفت كم يذهب من راتبي إلى التأمينات وكم أقبضه بيدي... وكنت أحسب كم سيبلغ معاشي... ومع مرور السنين كم كنت أفرح حين يتنامى إلى علمي قرار جديد بزيادة المعاشات وخلافه... وأُمنّي نفسي وأصبر نفسي وكأني أرى أمامي فراشاً وثيراً حريرياً ينتظرني لينفض عني عذاب الطريق وتمنيت... وحسبت قيمة المعاش...

كل شيء في حياتي كان يدور حول أمنية الراحة بعد العناء... حين تكافئني الدولة عن عملي وعمري ودفعي للتأمينات...

وكما كان حلم المعاش يراودني دائماً... كان يراودني في صحوي... وكنت حين أحدث زملائي عنه يسخرون مني...

– يا أستاذ الله يبارك لك فوق من الوهم ده... معاش إيه بس في الزمن الأغبر ده؟

– أما إنت غريب يا أخي... أمال بتتوظف ليه... بتدفع تأمينات ليه... وبعدين يا ابني دي مكافأة العمر... تكبر وترتاح

من المواصلات والشغل وخلافه... يعني اللي بتزرعه وانت شاب حتحصده وانت كبير...

– قصدك اللي بكسبه وأنا شاب بتنهبه الحكومة وأنا كبير

– تنهبه إيه بس... لا إله إلا الله... يعني إيه تنهبه

– يا أستاذي العزيز... تقدر تقولّي حضرتك بتدفع كام شهريا؟

– بدفع ميتين جنيه والشركة بتدفع لي ربعمية

– جميل... يعني في السنة سبعتلاف ومتين جنيه... في الأربعين سنة اللي حتكون اشتغلتهم على ما توصل سن المعاش يبقى حوالي أكتر من ربع مليون جنيه.. لو كنت حوشتهم وحطّيتهم في بنك كانوا جابولك ألفين جنيه شهريا... عارف سعادتك معاشك يعمل كام؟؟ يعملّه ربعميت جنيه بالكتير ولمدة كام سنة؟؟ ربنا يديك طولة العمر حتعيش يعني كام سنة بعد سن المعاش... يا أستاذ وحد الله... دي سرقة علني... سرقة قانونية مية في المية هاهاهاها

– أعوذ بالله منك ومن أمثالك... سودها في وشي الله يسامحك... يا سيدي أنا عندي عيال... الله يكرمهم هُمَّ وياخدوا المعاش من بعدي

– ربنا يخليهوم لك يا سيدي

وتتوالى الأيام... أصحوا في كل منها على صوت بائعٍ متجوّلٍ ما ينادي على بضاعته ليجلجل صوته بأرجاء حارتنا الضيقة... ثم أحتسي الشاي مع أم العيال وأخرج في تمام الثامنة والربع وأركب أتوبيساً لطالما أذهلني دقة ميعاده... أتوبيساً سائقه منتظم مثلي... يحملني إلى عملي في تمام التاسعة إلا خمس دقائق.. نعم... فمن حسن حظي أن يكون بيتي على بعد ربع ساعة من عملي... أيام الشباب الأولى كنت أذهب مشياً، إلا أن ساقيّ قد كلّا عن حملي فآثرت الأتوبيس والشوارع المزدحمة... وأصل إلى عملي وأطلب فنجانَي قهوة متتاليين أكون أثناء احتسائي لهما قد انتهيت من قراءة الجريدة التي لا أترك فيها كلمة إلا وقرأتها... حتى صفحة الرياضة التي لا أحبها... أقرأها عسى أن أجد فيها ما أتندر عليه من أجور اللاعبين أو شجار إدارات الأندية... وأبدأ عملي بالحسابات... أقترب من كراسات وأقلام وآلة حاسبة وأعيش يومي بين الأرقام التي أحبها...

فللأرقام سحر خاص... رقم يعلو بقوم... ورقم يدنو بآخرين... رقم يدلني على مشكلة وآخر يقربني من حلها... الأرقام واضحة وصريحة... لا تعني إلا ما تظهر ولا تحقق الا ما تقدر عليه... الأرقام ساحرة... حقاً ساحرة... تطمئنني وتمنيني بحياة كريمة...

وأرحل عن عملي مودعاً الأرقام لغدٍ قريب... لأستقل أتوبيساً آخر وأذهب لبيتي فأجد زوجتي تعبق حياتي برائحة شهية

وأجد أولادي فأتحدث أحاديثهم وأضحك ضحكاهم وأشاهد فقط ما يحبونه بالتلفاز... وأنام بمقعدي حتى ينتهون لننهض جميعنا كلٌ إلى فراشه...

ويتكرر يومي... ويتكرر... حتى يأتي موعد الإجازة السنوية فيتغير الروتين إلى روتينٍ أحبَّ وألطف على أحد المصايف التابعة لنقابة التجاريين...

ويكبر الأولاد... فيعمل الولد وتتزوج البنت... وأمرض أنا... ويتم علاجي أيضاً بمستشفى تابعة للنقابة... وأفكر: والله مش خسارة أبداً اشتراك النقابة اللي كنت بدفعه كل سنة، أهو جه بفايدة.

وأمرض أكثر... ويزورني زملائي...

– إيه يا أستاذ الدلع ده... إنت عجزت ولا إيه... قوم يا راجل كده إنت زي الفل ماشاء الله

– ها ها ماشي يا سيدي... ربنا يكرم

– والله كنت عند الأستاذ ثروت بسوّي معاش مبكر فوصّاني أسلم عليك أوي أوي وبيقولّك ألف سلامة

– الله يسلمه... يا بني معاش مبكر إيه وتسوية إيه... يا بني إنت ولادك في رقبتك سيب لهم حاجة

- يااااااه يا أستاذ إنت لسه مركز في الموضوع ده... يا سيدي العزيز ما البنت على وش جواز والولد عدي واحد وعشرين... يعني كده كده بح... لو ماستفدتش بالمعاش اللي سرقاني الحكومة في نصه وأنا عايش... حتسرقه كله بعد موتي عشان مش حتديه لا للولد بما إنه راشد ولا للبنت بما إنها اتجوزت

- نعم!!!

- أيوه... مانتا عارف... !!!

- عارف... أيوه عارف... وأنا بنتي اتجوزت وابني اشتغل خلاص وعدي السن

- ربنا يديك الصحة يا أستاذ وتتمتع انت بالمعاش وترتاح...

- أيوه... بس افرض... قصدي يعني... ده كده... عمري كله يبقى اتسرق

- ربنا يديك الصحة يا أستاذ وتقوم لنا بألف سلامة!!

لا عبورَ للمُشاةِ



كنت أستخدم بعض الحواس وليس كلها... سمعاً وبصرًا وحسًّا فقط... لم أتعود النطق... الاعتراض أو الحوار... حتى السؤال لم يكن أبداً مقبولاً...

كانت شرفتي تكاد تطال الشاطئ وكنت أنام كل يومٍ على صوت تلاطم الأمواج وعلى صوت همسات تمنت نومي السريع... وكنت أقاوم النوم وأكرهه... لكن... كان جسدي يستسلم لحركة الموج التي أنهكته صباحاً... أو كان يجبرني الله على النوم حتى لا أسمع ما بعد الهمسات... لكنني قبل أن أذهب إلى سُباتي كنت أودّع الوعي بدمعتين حملتا ما لم أنطقه... وكنت أصحو كل يوم على صوت مرح أولاد متجهين إلى الشاطىء... على وسطهم عوّامات ملونة ولعب بأيديهم أو... على صوت سيارة إسعاف تنطلق مسرعة لإنقاذ أحد عابري الكورنيش الذي لم يبلغ الجانب الآخر من الطريق فقط لأن مَرِحًا آخر نسي أن للشارع مارة من بني جنسه قد يقتلهم برصاصته المُدَويه ذات طراز مرسيدس...

كانت الأصوات تشكل إدراكي الصغير... تعرفني بحياة صاخبة حتى في هدوئها... وباتت كل ذكرياتي إما أصوات أو روائح، فلا زلت أذكر رائحة الموج في الشتاء وقد تناثر على الطريق... وأذكر رائحة مِنن... صديقتي التي كانت تصيّف بذات البناية قادمة من اليمن... كانت رائحتها مزيجاً من زيت وبخور وعطر... وملابسها مزيجاً من أناقة وغرابة... حتى بيتها... كان هادئا كالليل ورائحته مثل السلحفاة المائية التي كانت أمها تربيها... كانت أسرة مِنن كبيرة... إخوة كُثُر... وهدوء أكثر... كانت شريرة... تحدق بي بعينين صغيرتين وتقذفني بسخرية لاذعة... كانت تسخر من ملابسي... شكلي... وأمي... وغياب أبي... كنت أكرهها... ولا أعرف ما الذي أبقاها صديقتي لمدة عامين... كانت تزدريني وكنت أهابها... كانت تجرحني وكنت أقضي معظم أمسياتي معها، ومع نانا... صديقة أخرى... جميلة جداً... أنيقة جداً بلا غرابة... ذات بيت صخب... به فيديو... وأخوة صغار... وأخت شقراء كعرائس باربي... لم تكن تشعر بي تقريباً... كان كلامها المزهو بأموال أبيها يعبُرني ويتوجه للجميع... للعالم بأكمله... كان ببيتها رائحة طعام... دائماً رائحة طعام... لم أكن أحبها... كنت مبهورة بحياتها.. أكاد أغار منها... فهي لم تكن تراني...

لم أقترب إلا من فتاة لا أذكر اسمها... كانت بحال متواضع في كل شيء... كان بيتها جارنا ولكن بعيد عن البحر... صغير... به نباتات كثيرة جداً... طبيعية وصناعية... اهتمت بها أمها محاولة إذابة فرق اجتماعي أو بالأحرى مادي بالتزيين المبالغ فيه للأشياء... كانت أمها فجة لكن كلها طيبة وكرم... كانت تقضي نهارها بالمطبخ تجهز مؤن وخزين لبطون الأولاد... تقشر أطنان من الثوم وتحفظه بالفريزر... تعصر أقفاص من البرتقال وتصنع المُربى من الجزر وتنقي أرزاً لا حصر له ثم تقسّمه بأكياس... وكانت بالغة النظافة... وكان أبا صديقتي سمساراً يزدهرعمله بالصيف ويترقب الرزق شتاءً... كان أخواتها كباراً... أخوين بالبحرية وأخت جميلة كنجمات السينما... كانت تمتلك سيارة وتعمل بائعة... كان شعرها حريريًا... رائحته شامبو... وأنفها دقيق... وقدها جميل... كان اسمها ميرفت... وكانت صديقتي تنطق الفاء في اسم أختها فاءً واضحة فجة...

بالصيف كنا نتقابل أحياناً صباحاً للسباحة بالشاطئ القريب... وكنا نتلاقى مساءً على الكورنيش نراقب المارة وننتقد ملابس السيدات أو نشتري الترمس والذرة ويسرح خيالنا بأحاديث بعضها حقيقي...

كنت صغيرة بإدراك كبير ومشاعرَ مجروحة مما لا أفهمه لكني أعرفه... كنت أقضي معظم يومي خارج المترل... وكنت وحيدة... لم أعرف في الحياة أخوة أو أقارب بمثل سني... كنت لا أخاف مرور الطريق... فكنت أحب الكورنيش والنظر إلى البحر... كنت أسبح كثيراً وأخاف البحر ليلاً فأقف أمامه بالساعات وأشعر برهبة كبيرة... خوف من ظلمته وصوته الذي يغطّي على أصواتنا وضحكاتنا المفتعلة... لم أعرف للطفولة "براءة" كما يقولون... عرفتها صمتاً ملوناً برائحة الموج وشواء الذرة وعطور المارة...

وكانت إحدى الأمسيات... وكنا على الكورنيش... وازدرتني مِنن لأنني قد ارتديت بلوزة بلا أكمام وتجاوزتني نانا وهي تحكي عن رحلة لندن وصمتت معي الصديقة التي لا أذكر اسمها... وملأ الهواءَ رائحةٌ قذرة واستدرنا جميعاً لنجد رجلاً ذا جدائل من شعر وطين... لونه أسود من وسخ... يرتدي جاكيتا... وفقط جاكيت! يصيب المارة بالذعر على الرغم من أنه لم يقترب من أيٍّ منهم... فقط كان يمشي يحدث نفسه... نظرت تجاه شرفتي ورأيت أمي تشاهد وتشير لي بأن أذهب إليها... عبرت جانبًا واحدًا من الطريق ورمقتها بنظرة أخرى فوجدت ظلاً آخر فهممت أن أعبر الجانب الآخر حتى أسرعت سيارة... ترددت للحظة فخارت قوى ساقيّ وسقطت أرضاً بوسط الطريق... سمعت صوت السيارة تتوقف وملأت أنفي رائحة عادم سيارة أخرى... أحدهم ساعدني على الوقوف...

كانت ساقاي بخدر لكنهما حملتاني... عبرت الطريق... ودخلت المترل... وبعد دقائقَ أُمرت أن أبقى بغرفتي... ولم يكن لي إلا شرفتي... رأيتهم ما زالوا يتحدثون... وقد رمقتني مِنن باستهزاء فهي تكاد تعرف ما يدور بمترلي...وتجاوزت نانا رحيلي واستمرت في سرد مغامراقا... ربما مغامرة الهند هذه المرة... وظلت صديقتي التي لا أذكر اسمها تنظر باتجاهي مبتسمة ابتسامة طيبة... حاولت أن أبدو لا مبالية... وكأني أصنع شيئاً هاماً... فأتيت بمجلة ميكي... ثم رقصت قليلاً... ثم دفعت الأرض بقدمي قليلاً حتى يهدهدني الكُرسي الهزاز... مر الوقت... وعاد معظم الناس إلى بيوقم... وخلا الكورنيش من المارة إلا فيما ندر... أصبح صوت الموج أكثر وضوحاً... ورائحة البحر أكثر نفاذاً... لم يكسر اللوحة الليلية إلا مرور سيارة مسرعة أخافتني... وحمدت الله أنها لم تصدم أحداً... نظرت عن يساري... على بناية على ناصية الكورنيش بها جراج بابه باتجاهي... رأيت السيارة الزرقاء بداخله مثل كل ليلة... ورأيت العامل الذي ينظفها مثل كل ليلة... لكن... كان ينظر باتجاهي نظرة ثابتة بها ما ظننته مُريبا وخاطئا... كان نصفه مختفياً وراء باب السيارة يكاد يخفيه الظلام... ووجهه ظاهرٌ ينيره ضوء الشارع... أصابني الهلع لا أعرف من ماذا... وقررت أن أستسلم للنوم... على صوت موج البحر.. بعد دمعتين لم يحتاجا لهمس كي يعلنا اعتراضي ويبللا وسادتي...

واستيقظت صباحاً على صوت ارتطام وصدام سيارات... جريت للشرفة فرأيت أحدهم ملقىً بجانب الرصيف... تحت

رأسه دماءٌ كثيرة غطت بذلة البحارة التي يرتديها... تسارعت دقات قلبي وقد عرفته.. هو أحد أخوة صديقتي التي لا أذكر اسمها... اسمه محمود... أسمر فارع الطول قوي البُنية ذو ملامح غليظه كانت تخيفني...

بكيت... لا أذكر لماذا بكيت... هل لأنني خفت الدماء... هل لأنه محمود... هل من أجل صديقتي... أم أنني وجدتها حُجة كي أبكي بصوت عالٍ طوال اليوم وأمام أمي دون أن أُسأل عن السبب الذي لن أستطيع أبداً معرفته... لن أستطيع أبداً نطقه...

ذهبت إلى بيت صديقتي.. لأجد بكاءً صامتًا من أسرة كانت ضاحكة صاخبة... ميرفت وقد غطت شعرها الحريري بإيشارب أسود... الأم الفجة وقد غَرُبَت عيناها حزناً... صديقتي تنتحب بلا توقف على "أبيه محمود"...

لم أستطع البكاء معهن... فقط... تساءلت أين نانا ومِنن... لم أجد إجابة إلا ظل ضحكة شاحبة ساخرة من سؤالي... جلست صامتة مثلهن... أستمع إلى قرآن... أحاول فك شفرات همس نساء جلسن في حزن... فكرت... وفكرت... ثم تركتهن واتجهت إلى البحر... عبرت الطريق ومشيت لدقائق... وقررت أن أعود لصديقتي... هممت أن أعبر فتسمرت قدماي... أصابني رعب... كان الطريق هادئا فارغًا... عُدت إلى البحر... صوته طمأنني... رائحته أراحتني... منظر الصيادين وسنانيرهم أعادني إلى ألفة محببة... مر الوقت... غابت الشمس وأيقنت أنني يجب أن أعبر ويجب أن أعود... استجمعت شجاعتي وجريت بكل

قوتي عابرة الطريق دون أن أنظر... جريت إلى غرفتي... والتقطت أنفاسي وأنا بالشرفة... وشعرت بالأمان... وأقسمت ألا أعبر الطريق ثانية... لم أودّع البحر... ولا صوت الموج ولا رائحته... فقد ظلوا أصدقائي لكن من شرفتي... كنت صغيرة...

لم أكن أعرف أنني سأظل أرفع رايتي حتى وقد صرت على أعتاب الخمسين...

أنني سأصاحب الأشياء عن بعد.. أنني سأفضل الأمان على القرب...
وسأفضل أن أكون وحدي على أن أكون وحيدة... وأنني سأفضل عدم النوم على نوم عنوانه دموع... ورفعت رايتي دائماً... راية كنت أتمنى إعطاءها لصديقتي أمل - التي لم أكن أذكر اسمها- قبل رحيلي عن تلك البلدة... راية: لا عبور للمشاه!!

حَبَّةٌ قبلَ النومِ بسَنة!

كانت علبة صغيرة خضراء، تناولتها بأمل وبحث عن راحة وقتية... أخذت إحدى الحبات ونظرت إلى الساعة... الحادية عشر والنصف مساءً.. تمنت لو نامت بعد منتصف الليل بساعة... نموذجياً كان التوقيت... تمنت لو تنام... ليتوقف ذهنها عن العمل قليلاً... ويرتاح عن جلد ذاتها قليلاً... فَجُـــلّ ما تمنته هو الراحة لبعض الوقت...

مرت ساعة وهي تشاهد تلفازاً لم تفقه مما فيه شيئاً... فكان ذهنها يصور لها مشاهدَ أخرى تعرفها تماماً... مشاهد تجمعها به وهما يتعانقان بشوقٍ بعد عودتها من العمل ومشاهد وهي تستبدل ثياب العمل بأخرى تمكنها من تنظيف بيته... مشاهد قريبة ليديها اللتين لم تعرفا التنظيف وهما ممسكتان بدلو الماء تمسحان أرض بيته... حباً فيه... رعاية له... وكان ذهنها يصوّر لها مشاهد أخرى عرفتها مؤخراً... مشاهد لم ترها ولكنها أدمتها... مشاهد البيت النظيف الذي شهد على يديها بريقاً وهو يستقبل رفيقاته... مشاهد تقرب منها أغطية سريرها الجميل الذي ظنت أنها تبتاعه لزواج سيدوم عمراً ويشهد عشقهما...

مشاهد أغطية غرقت بعرق مومسات أبدلها بهن لساعات قليلة غابت فيها عنه...

مرت الساعة وهيّأت للحبة مجالاً كي تعمل... فتوجهت إلى سرير صغير لم يعرف إلا جسدها هي فقط... سرير غمرته رائحة عطرها... وبقايا عطره... عطره وعطرها فقط...

استلقت على جانبها الأيسر في مواجهة باب الغرفة كعادتها.. وافتقدت يده التي طالما أسندها إلى ظهرها لتشعر به حتى وهي نائمة... فانتفضت من الألم... حيث كان للجانب الأيسر نصيب الأسد من كدمات سببتها قبضاته فتورمت الدماغ والذراع والساق وجرحت...

تقلبت ونامت على جانبها الأيمن الذي لم يؤلمْها به دماغُها بل كدماتٌ أبسطُ محتملةٌ بذراعها وساقها... وافتقدت احتضانها لظهره ونومهما الهادئ... وفكرت... هل يعقل أن تفتقده؟... بعد كل ما فعله... وثارت برأسها التساؤلات ثورة شعب مقهور من طغاته... هل كان طاغيتها؟

هل يشعر؟ هل يندم؟ أهو الآن يضاجع إحداهن؟ أهو الآن يبكي حنانها؟ هل يفتقد أطفالهما؟ هل تقول له بمرضهما وبكائهما المستمر؟ هل تنفث عن غضبها؟ هل تؤذيه؟ هل تقتله؟ هل ما زالت تحبه؟ هل بالفعل تكرهه؟ هل تعرف غيره؟ هل ستتزوج

ثانية؟ ماذا كان يشعر وهو يخونها؟ هل يندم بعد كل كذب؟ هل هو حقاً مريض؟ هل يستحق؟ كيف يحب جسدا نقيا ثم يمرغ نفسه بأجسادٍ مُدنسة؟ كيف أحبها وقتلها؟ كيف كرهها هكذا؟ لماذا لم يتركها؟ لماذا فضل عليها جميع المعاصي؟

لماذا فرّط بعائلة لم تحب غيره؟ لماذا استهان بملائكة صغار رسموا له كلمات الحب بخطهم المتعرج الملون؟ هل هو شيطان من الإنس؟ هل هو الطفل الذي أحبته أكثر من نفسها؟

غضبت... ثارت أكثر وتركت سريرها وأشعلت سيجارة وكأنها تشعل قلبه حنقاً وغضباً... توجهت إلى النافذة... وتساءلت لماذا تحقق في السيارات المارة؟ هل تتمنى أن يكون هو؟ هل تخاف أن يكون هو المار؟

نظرت إلى الساعة فوجدها الثانية... تأففت... وتساءلت لماذا لم تعمل الحبة؟ فقد مرت ساعتان وأكثر... بل تشعر بنفسها أكثر انتباهاً... أكثر انتباهاً للتفاصيل... وتذكرت يوم كان مريض وأسرعت إليه ووقفت على الباب طويلاً وهو لا يفتح وحين نزلت بعض الطوابق ناداها... هل كانت إحداهن عنده وهرّبها ثم ناداها؟؟ ألهذا لم يشاركها الفراش يومها؟ وتذكرت حين أقنعها أنها سببت له علامة حب بعنقه رغم أنها كانت متأكدة أنها لم تفعلها... فكرت: كيف اقتنعت؟؟ غبية!!

لفحها هواءٌ باردٌ جداً رغم أنها بكامل ملابسها... فهو يغضب جداً إذا فتحت النافذة مرتدية شيئاً مكشوفاً وإن كان في ظلام الليل الدامس...

حرق حلقها الدخان فذهبت إلى المطبخ لشرب بعض الماء واهتمت بقفل نوافذه في الظلام وقبل إضاءته... فهو يغضب جداً إذا تركت نافذة المطبخ مفتوحة وهي فيه...

عادت إلى النافذة... وغضبت جداً... ابتلعت غصة بكاء حار وغضبت جداً... على كل هذا الحب الذي أحبته له... على عينيه التي احتارت في لونهما... على جسده الذي كان أول اهتمامها أن ترعاه... على كلماته وضحكاته التي تزامنت مع ضحكات لم تعرفها قبله... على جلساتهما وقهوتهما وراحتهما بجانب بعضهما وإن ظلا صامتين... على وثاق جمعهما به الله برحمته ليجعل حبهما شريفاً نقياً بلا أدنى خطيئة...

غضبت... من نفسها وعلى نفسها... غضبت منه... تمنت له الضر... أن يذوق عذابها ولا يعرف راحة أبداً... وتذكرت لحظة غاب فيها عن روحه الطيبة وأبرحها ضرباً... تذكرت كيف دفعته عنها مراراً وبعنف... تذكرت كم كرهته وقتها وكرهت نفسها... وتذكرت كيف لم تطاوعها يداها للإمساك بذاك الحجر... وتذكرت كيف دافعت عنه حين هاجمه الناس...

واجهت نفسها بحقيقة مشاعرها الآن... فالأمر لم يعد يخصه هو فقط... بل يخص المعنى الذي بداخلها... فقد كرهت الحب... كرهت الحب ذاته...

وتذكرت شفتيه... لم تعرف يوماً أن للشفاه مذاقًا إلا معه... وتذكرت قبلاتٍ عدة بمَزاقفَ عدة... وعرفت أن القبلة التي لن تنساها يوماً هي التي طبعتها على خده محاولة تهدئته وبعده عن من كادوا أن يؤذوه... برغم جراحها وآلام جسدها وجدت بداخلها قبلة أعطتها له.. فهدأت ثورته قليلاً وتوقف عن السباب والضرب...

تساءلت ثانية أين هو... لماذا باعها بلا مقابل... لماذا تخلى عن حبهما من أجل نَجَسٍ ودقائقَ ثوانيها شهوة... ولماذا أحبته... لماذا صبرت حتى خذلها لدرجة أن صارت حطاماً؟؟

شعرت وكأن بركانًا يتفجر بداخلها... غضبٌ... ألمٌ... ومزيدٌ من الغضب...

لأنها علمت أن الخيانة لم تكن منه... بل كانت من نفسها!



مُعَسْكرُ المطلقاتِ

ابتسمت بسخرية للفكرة ولكني انجذبت... وذهبت، بعد أن حرصت على جمع أفضل الثياب الرياضية وثوبي سهرة إذعاناً لفكرة: "ربما"

لم أنم الليلة السابقة للسفر للمعسكر الذي أقيم بأحد الشواطئ المهجورة لمرسى مطروح... فقد كان عليّ تنعيم الساقين والذراعين وتنقية الوجه... بل وتصلب ظهري من طول وقفتي أمام مرآة الحمام حيث حرصت على تغطية كل شعرة بيضاء ظهرت رغم سواد شعري الفاحم... كنت أعرف أنني جميلة وتشوبني بعض العيوب، مثل ردفان عظيمين والنمش الذي غطّى وجنتيّ.

لا أعلم لماذا تحمست ووافقت على الذهاب... خاصة وأنا المتنمرة التي لا أكاد أطيق معاشرة الغرباء ولا ضوضاء وثرثرة النساء...
استقللت سيارتي ومشيت وراء أسطول السيارات الذي اتجه معي نحو المعسكر بعد فجر أحد أيام الربيع العجيب الذي شهدته

الأراضي المصرية... فقد كان ربيعا ذا مناخ بارد يتحول إلى حار جداً أو بارد جدا بسرعة وتناوب غريبين.

طالت الرحلة وتعبتني القيادة خصوصا مع حرص السيدات الفاضلات على الالتزام بسرعة ١٠٠ كم/س... كانت سرعة خانقة بالنسبة لي... فأنا أريد أن تنتهي المسافة... أن تخلص... أن تسرع ونصل بأقرب وقت.. لا أعلم لَمَ أنا دائماً في حالة ملل من الانتظار واستعجال للنتائج... ربما بسبب شعوري القوي أن عمري لن يَسَعَ التباطؤ والتأجيل... أن ما لي ليس لي فعلا ويجب التمسك بكل ما أتيح سريعا...

طالت الرحلة ولكن حقيقة أن المسافة تتناقص أصبحت مفرحة حين أشارت أولى السيارات المتقدمة عن السرب والقائدة له أن يتخذن كلهن يمين الطريق إيذانًا بوصولهن سالمات.

لم يكن فندقا فاخرًا كما اعتدت... بل لم يكن فندقًا إطلاقاً... كان أشبه بمعسكرات الكشافة حيث الأكواخ والبحر وبعض الأدوات الأساسية للمعيشة... اشمئززت داخليا ولكني لم أشتكِ... أنا أتحمل!!!

استقر الجميع وأعلنت السيدة المرموقة صاحبة فكرة المعسكر أن عليهن الاجتماع تحت المظلة الكبيرة المطلة على البحر...

فرحت كالطفل... حيث أن البحر الراقي دائماً والجميل يسبب لي سعادة تلقائية بمجرد رؤيته واستنشاق نسيمه...

كنت أول السيدات الخمسة عشرة اتخاذا لمقعدي... مقعد استراتيجي يتيح لي رؤية البحر أكثر من رؤية زميلاتي بالمعسكر...
بدأت السيدةُ المرموقةُ الكلامَ بصوتٍ رخيمٍ يليق بمذيعة للراديو... كانت سيدة ذات وجهٍ طيّب وعينين نفاذتين تنمان عن شخصية ذكية ورصينة:

- سيداتى الجميلات... المستقلات... الراقيات... اللاتي أدت الظروف أياً كان نوعها أن يكن مطلقات... برحب بيكم في المعسكر الرابع للمطلقات.

الحقيقة أنا كنت خايفة إن لفظة "مطلقات" تزعج صديقاتي الحاضرات بس حبيت يكون ده استهلال مرحلة تقبل للفظ والمعنى بدون أي استياء أو خجل... لأن آن الأوان نعلم المجتمع يبطل يشتمنا بكلمة هي مجرد وصف للحالة الاجتماعية ودلالة على الخبرة العائلية السابقة ليس إلا... ها ها ها لأ مفيش لزوم للتصفيق... مفيش مرشحين هنا ولا انتخابات... هاهاها المهم... أحب باختصار أشرح الهدف من رحلتنا ومعسكرنا ده... الحقيقة... تبادل الخبرات والصراحة ومواجهة النفس أول درجات قبول الحياة وواقع إن الطلاق

مش عار... والإحساس بالعار من حق مشروع وحلال هو سبب أذماتنا النفسية داخل مجتمع محسسنا بغربة وبيمارس ضدنا عنصرية مقنعة من أدنى ما يمكن.. بالرغم من إنه حق شرعي كفله ربنا للأزواج من النوعين.

أنا مش حطول عليكم... خلال الأسبوعين... حنفهم كتير وحنحس كتير وحنتكلم أكتر... عشان يبقى إصلاح المفاهيم الخاطئة لازم يبتدي من عندنا الأول.

ودلوقتي... نتعرف على بعض وبالدور بقى نعرف نفسنا، اسم ووظيفة وعدد أولاد ومن امتى مطلقين والسبب لو تحبوا.
اتفضلي مدام رانيا...

ووقفت المدعوة رانيا التي –بتقديري– لم تتجاوز الخامسة والعشرين... فتاة أنيقة ذات قوام جميل يدل مظهرها على الثراء إلا أن رعشة يديها تدل على عطب داخلي كبير.
– أنا رانيا الكومي... عندي ٢٦ سنة... عندي ولد عمره سنة وحاتجنن إني سايباه مع مامتي بس الدكتور نصحني بالمعسكر ده (وضحكت ضحكة عصبية) بقالي ٤ شهور مطلقة... واطلقت لإنه... لإنه عنيف.

وأطرقت... بخجل وانكسار... وجلست سريعاً وكأنها خائفة أن تسألها إحدانا أي سؤال آخر... قلت في تفسي "أما ابن كلب حيوان صحيح"

ووقفت من تلتها وهي سيدة أكبر سنا تجاوزت الأربعين ذات شعر أحمر ناري وأحمر شفاه ناري وحقيبة استقرت بجانبها كبيرة جداً حمراء هي الأخرى... أتعجب لماذا يقفن... لسنا في مدرسة على أي حال...

- أنا مدام جي جي (وكانها تحذر أي واحدة أن ترفع الكلفة معها)... مش حقول سني عشان كده مش كويس هاهاهاهاهاها...عندي ولدين الاتنين بيدرسوا في أمريكا... اطلقت من سنة بعد ما طلع عيني... بخيل ونتن وبيبص برة... ويا ريت كده وبس كنت سكت واستحملت عشان برستيجي الاجتماعي... إنما كمان رفض يغير لي المرسيدس... أنا مش فاهمة... قلت له ميت مرة لازم يكون فيها فتحة سقف ولونها أحمر... .قرفت... سيبته.

نظرت حولي لأرى هل تقيأ أحد وسبقني أم أنا الوحيدة التي تقززت من هذه السيدة وأشفقت على زوجها؟ لم أتنبه أن التالي كان دوري إلا عندما نبهتني صديقتي ليلى الجالسة بجانبي... تلعثمت وشعرت بصوتي يكاد لا يخرج... ولكني بدأت وأنا أكاد لا أرى أي واحدة تفصيلا بل مجرد خيالات جالسات فقلت:

- أنا نور... عندي ٣٦ سنة... وعندي ولد وبنتين... وأنا... أنا...

ومادت الأرض بي... فقد أدركت لحظتها ما أنا به... وكيف كنت طيلة السنة الماضية... ومن أنا... كم أنا مدعية حالمة غبية... كم أنا جبانة وواهمة وغير منطقية... كم أنا خائفة وأن معنى وجودي هنا قد استقر بقلبي كحقيقة واقعة لا محالة منذ أشهر طويلة... ولكنه تمسكي بالوهم والحلم معاً... وهروبي من ألم حارق غداً... ورفضي لأن أكون ما يجب أن أكون...

– أنا... متجوزة!!!

مِطْرَقَةٌ مُثلّجَةٌ



كان فتىً أسمرَ ذا ملامحَ تمتزج فيها السماجة مع نظرة قهر محيرة تطل من عينيه فبان كالفأرالمذعور... لم يحبه معظم الناس بالرغم من أنه لم يتجاوز الثانية عشرة... ربما مقتوه بالتبعية لمقتهم لأمه التي تجنبها معظم أقاربها وجيرانها لأنها "أذى".

كان فتىً أسمر ذا ملامح تمتزج فيها السماجة مع نظرة قهر محيرة وكانت عيناه تلمع كلما هبط بالمطرقة بكل ما أوتى من قوة على بلاط أرض غرفة أمه... كأنه ينتقم منها ومن نفسه ومن الغرفة التي طالما مُنع الدخول إليها واللجوء إلى هواها البارد في نهار الصيف الحار... عندما أعطته أمه الليلة السابقة مطرقة ثقيلة وأمرته بتكسير البلاطات القديمة التي غطت أرض غرفتها لأنها تنوي تغيير الأرضيات، لم تشرح له لمَ لن يقوم العمال بعملية التكسير... ولكنه لم يحتَج إلى تبرير، يعلم أنها تريد توفير الجنيهات القليلة مقابل التكسير ورفع المخلفات... يعلم كم هي بخيلة... بل علم طيلة حياته بشحها وبخلها عليه وحده ودون نفسها.

هَوَى بالمطرقة بكل ما أوتي من قوة على البلاطة المجاورة ليده التي استند بها على الأرض الباردة النظيفة... نعم، فقد كانت أمه شديدة الاعتناء بنظافة البيت فكان البيت البسيط الصغير يبرق بفضل اعتناء أمه وتكليفه بعدم تحريك أي شيء من مكانه وعدم فتح الثلاجة أو دخول المطبخ إلا بإذنها... لذا فقد اقتصر تحركه في البيت على سرير عرضه متر بجانب نافذة خشبية صغيرة فكان إن مل جلوسه أو نومه على السرير نظر إلى الشارع من فتحة بالشباك الصغير خوفاً من فتحه وسباب أمه "إنت يا ابن الكلب... اقفل الشيييش... الدبان حيملا البيت".

جمع البلاطات المتكسرة بيديه إلى ركن الغرفة وعاد ليمسك بالمطرقة وقد تورمت راحته قليلاً بسبب يد المطرقة الخشبية الخشنة ثم هوى بها على بلاطة أخرى... كان قد بدأ التكسير من منتصف الغرفة تماماً راسماً –بالتحطيم– شكلاً هندسياً مسدساً أعجبه... فقد اختلط التحطيم نزولاً على رغبة أمه بالرسم الهندسي الذي طالما أعجبه بالطاقة اللذيذة التي اعترته كلما هوى بالمطرقة مكسراً بلاطة جديدة وكأنه هرقل ذو القوة الهائلة والقبضة الأسطورية...

لم يشعر يوماً أن به إمكانات الرجل من قوة وجرأة وخلافه... تمنى رفع صوته... صوته الذي حاول جاهداً أن يجعله خشناً كصوت أقرانه... ولو بالإدعاء... ربما كان طول صمته هو السبب... فلم يكن له أخوة ولم تكن تحدثه أمه إلا إذا أرادت أن تأمره بشيء ولم يكن يحدث أباه إلا يوم الأربعاء حين يزوره...

فقد كان زوجاً لامرأة أخرى وأباً لأولاد آخرين لم يطلب منه أحد يوماً أن يشير إليهم بـــ "إخوتي"... حتى الفتاة الشقية التي تسكن بالدور الثاني من ذات البناية لم تتحدث إليه إلا نادراً... الفتاة الشقية التي تحدّث جميع أولاد الحي... كانت تكتفي بالنظر مطولاً إلى شعره اللامع الذي يتحكم الفازلين بتجعيداته، ثم تبتسم وتمشي بعيداً دون كلمة.

تعبت يداه... فقام إلى الحمام ليغسل يديه ربما تبردان قليلاً... ترك المياه الباردة تخفف من وجع يديه قليلاً... غسل وجهه أيضاً وألقى نظرة على وجهه بالمرآة وتعجب من شبهه الكبير بأمه عدا حاجبيها شديدي الرفع التي تحافظ على شكلهما الغريب يومياً بالجلوس قرب النافذة في الشمس ممسكة بالملقط والمرآة ليصبحا هلالين شديدي الدقة وأقصر قليلاً مما يجب... صفف شعره بعناية وأجل وضع الفازلين المحبب إليه لحين انتهاءه من عمله.

ألقى نظرة على الصالة حيث تجلس أمه فوجدها تحتسي كوباً من الشاي باستمتاع شديد وهدوء مقلق... وكأنما تحيك مكيدة جديدة لأحدهم... كانت مكائدها هوايتها الأولى والأخيرة... لم ينسَ يوم بكت بلا دموع لجارتها أم شريف حتى تقرضها خمسين جنيهاً وهي التي لا يخلو دولابها من مئات الجنيهات... ثم رفضت ردها إليها قائلة: "أنا أستلف منك إنتي يا معفنة... أنا قبلت من كرم أخلاقي أسامحك على الإريال اللي كسره ابنك الأسبوع اللي فات وأخدت الخمسين جنيه تمن تصليحه!"

لم ينسَ يومَ أمسكت بمطفئة السجائر الزجاجية وخبطت رأسها بها بقوة حتى سال دمها ثم صرخت وبكت وجرت إلى قسم الشرطة المجاور محررةً محضرًا ضد أبيه فقط لتعلمه الأدب على تركه لها أسبوعين بلا زيارة... وقد تعلّم!!!

نظر إلى الشكل الهندسي من بعيد وابتسم زهواً بدقته... أو ربما استمتاعاً بتحطيم جزءٍ من أمه... غرفتها.

كان فتىً أسمرذا ملامح تمتزج فيها السماجة مع نظرة قهر محيرة... وكان إذا غضب دخل إلى الحمام ليبكيَ في صمتٍ خوفاً من وصول صوته لأمه فتضربه على الإزعاج الذي يسببه لها وهي "صاحبة مرض وضغطها عالٍ والصداع اللي نازل على عينيها قرب يعميها"..كان "ابن ميمي"... لم يدْعُه أحد باسمه... ربما لم يعرفوا أن اسمه وليد... أو ربما معرفتهم لأمه كانت أهم فطغى وجودها على اسمه... وكان وجودها اسماً مائعاً يخلو من المعنى ومجرداً من أي صلة تربطه بها فلم يكن فيها مايستدعي أن يدللها أحد باسم مثل "ميمي"... بل كان شبه متأكداً أن هي من دللت نفسها بهذا الاسم الكريه...

دخلت عليه فجأة...

"إنت مبتشتغلش ليه كويس يا ولا؟"

"إيديا ورمت ووجعاني"

"نعم؟؟... العمال جايين الصبح... ودول بيقبضوا باليومية... وأنا مش دافعة مليم أحمر ليهم عشان ابني العرة عامل لي بنوتة ومش عارف يكسّر كام بلاطة... يللا اشتغل"

ابتلع دموعاً كادت تفضح جرح كلماتها وأسلوبها الفظ وقام من مكانه صامتاً وأراها راحتيه... كانتا حمراوين متورمتين... جفلت أمه للحظة وربتت على كتفه وقالت...

"يلا كمل شغل بلاش دلع... ولما تخلص حاعملك مفاجأة"

لمعت عيناه وابتسم وقفز قلبه فرحاً غير مصدق أن أمه نطقت بهذه الكلمات فلم يعرف يوماً ملمس الهدية أو فرحة المفاجأة

"بجد يا ماما.. طيب قوليلي إيه هي... والنبي الله يخليكي قولي"

ضحكت ونظرت إليه متوقعة قفزات الفرح ومتخيلة الأرض وقد تكسرت كل بلاطاتها...

"حديك إزازة بيبسي"

صمت... نظر إليها مشدوهاً وقال:

"بجد؟!"

"نعم"

"من الصندوق أم من الثلاجة؟"

ترددت قليلاً ونظرت وراءه على ما تبقى من بلاط بالأرض وقالت:

"مثلجة"

لم يرد عليها بل ابتسم حتى كاد أن يخط شفاهاً جديدة والتقط المطرقة بسرعة وبدأ في الدق السريع المتلاحق بكل قوته ناسياً الشكل الهندسي... غير شاعرٍ بالألم الذي نغز راحتيه... نظر إليها نظرة خاطفة وهو منهمكاً في الطرق والتكسير فوجد ابتسامة رضا على شفتيها الرفيعيتين اللتين لم تعرفا المساحيق يوماً... ربما كانت أمه ذكية عندما علمت أنه لا يمكن لها بأي حال من الأحوال أن تزيدها مساحيق التجميل جمالاً... فقد كانت صاحبة ملامح يمتزج فيها شبح قبح مع الكثير من السماجة وعينين شديدتيّ الصغر ازدادتا صغراً من نظاراتها السميكة... حتى حين يستقبل بيتهم ضيوفاً –وهذا نادرٌ– أو حين تخرج مع أبيه –وهذا أندر– لم تتجمل يوماً إلا بلباسها شديد النظافة والأناقة.

لم يصدق نفسه وخيل إليه أنه يحلم... سيأخذ زجاجة بيبسي... سيمسكها بيده... سيلتقم فوهتها ويشرب منها...

كانت أمه تعشق البيبسي... وكان لا يكاد يفرغ صندوقٌ للبيبسي ذو الزجاجات الصغيرة حتى تطلب من البقال المجاور

صندوقاً آخر... كانت تعد الزجاجات في الصندوق... أربعٌ وعشرون زجاجة... تضع الصندوق بالمطبخ أسفل الحوض وتأخذ زجاجتين فقط لتضعهما بالرف الأعلى من الثلاجة... فقد كانت تحبها مثلجة جداً... تأخذ واحدة بعد طعام الغذاء والأخرى تحتفظ بها للضيوف الأعزاء لتبهرهم بالزجاجة المنظفة بعناية والمثلجة بشدة...

كم تمنى يوماً أن يتذوقها... يتذوق زجاجة كاملة مثلجة فُتِحت له خصيصاً... فقد كانت أمه تعطيه بقايا زجاجات الضيوف... بعد أن تفقد برودتها وقوة طعمها... إلا الفتاة الشقية التي ناولتها أمه زجاجة في مرة كانت تريد أن تسترضي فيها أمها... فالفتاة الشقية تأخذ القليل وتمشي بسرعة فيلحق بعضاً من البرودة ومعظم الطعم... ربما كان لهذا يحبها... ربما علمت بحرمانه فأهدته قبلاتها على طرف الزجاجة...

ظل يهوي بالمطرقة دون توقف حتى أنهى كل الغرفة... نظر إليها وقد خلت من أي بلاط... أي لون... أي شكل هندسي يحبه... كانت في قبح أمه...

ظل يحمل في أكياسٍ حطام البلاطات ليخرجه إلى الرصيف المجاور لنافذته حتى اغتربت الشمس وحل به تعب شديد وعندما غسل يديه بانت الجروح التي غطتها الأتربة... لم يعبأ لها أو للألم... كل ما كان يهمه هو تناول الزجاجة المثلجة...

ذهب إلى أمه مبتسماً متسائلاً عن جائزته بدون كلام... تأففت وقامت لتعطيه الزجاجة... وأمسكها... بيده المتشققة جروحاً... فأراحته برودها وهدأت من الألم... فتح الزجاجة وجلس على حافة سريره يتطلع إليها... رفعها إليه وشرب... مادت به الدنيا من السعادة والنشوة وظل يشرب وقبل أن يفرغ منها -وهو الشيء الذي حرص ألا يحدث سريعاً- لمعت عيناه بفكرة لذيذة كالسائل الساحر الذي يرطب جوفه...

متى سيكبر ويشتري صندوقاً ليضعه أسفل الحوض ويثلج لنفسه منه زجاجة... بل اثنتين... بل سيثلج الصندوق كله!!!

ابن ناس

ماما... إحنا عندنا فلوس كتير أنا عارف... بس أد إيه؟

- ممم... اشمعنا؟

- قوليلي بس... عندنا فلوس أد إيه؟؟

- كتير والحمد لله... نفسك في إيه قوللي

- منفسيش في حاجة... بليز ردي عليا... مليون؟؟ عشرة مليون؟؟ أكتر؟؟ أد إيه؟

- كتير يا حبيبي كتير متقلقش... عارفة إنك اتخرجت وعايز تعمل مشروع وعاملة حسابي... كنت لسه بكلم سامية برهان في الموضوع ده... أصلك أكيد محتاج حد خبرة معاك لغاية ما تفهم الدنيا فيها إيه...

- أنا فعلا مش عايز حاجة ومش بسأل عشاني أصلاً... طيب قوليلي... اللي معانا يعيشنا كويس أد إيه لو بطلتي شغل؟؟
- آآآآه... شغلي... أوكي كده فهمت... مش كنت تقول!!!

- أنا مش قصدي أقول حاجة... (متردداً ومتقهقراً عن مواجهة خاف أن تجرح أمه)

- أحسن برضه... باي... أنا خارجة.

ذهب إلى غرفته وأشعل لفافة تبغ واتكأً على سور شرفته التي تطل على نيل القاهرة الساحر... أرهقه الهاجس الذي بات يسيطر عليه أكثر في الآونة الأخيرة... رفضه لعمل أمه... ليس لأن الرفض طبيعي وتلقائي ونزعة من نزعات الرجولة... ولكنه رفض أثير بداخله بسبب تعليقات ابن عمه وبعض الأصدقاء من آن لآخر... تعليقات تشكك في رجولته... فالرجل لا يقبل أن تتعرى أمه وترقص كل ليلة... وإن كانت نجمة مشهورة... وإن كانت ثرية بفُحش... وإن كان معارفها أهم رجال وسيدات المجتمع...

لم يكن رفضه طبيعياً من داخله ولم يشعر بالغيرة التي يصفها الآخرون... فقد ربته أمه على احترام عملها وتقدير فنها... بل علمته الكثير عن فنون الباليه والموسيقى والرقص الشرقي... وطالما شعر بالفخر عند حضور المهرجانات العالمية التي كرمتّها...

لم يكن زمانه يعيب الرقص... لم يكن كفيلم "خلي بالك من زوزو" الذي وجده غير منطقي وتافه... الزمن الذي رفض

المجتمع فيه بنت الراقصة واستهجنها زملاؤها بالجامعة... زمنه مختلف... بزمنه كُرمت أمه وكانت ضيفة شرف مشاهير الفن والسياسة والمجتمع... بزمنه المال أجبر الجميع على احترامه... بزمنه خطب ابنة وزير الإسكان وحضر حفله ابن رئيس الجمهورية...

رمى ما تبقى من لفافة التبغ بغضب بالهواء... وتتبعها بنظره حتى استقرت على الأرض أسفل بنايته... كان غاضباً من غضبه...

- هو رامي ابن عمي المعقد هو السبب... طول عمره متخلف ومش فاهم ومزودها... عامل فيها شيخ والدنيا عنده جنة ونار... مش فاهم إن العمل عبادة... ومش فاهم إن أمي بتتعب جداً... سفر وسهر وتمرينات واستحمال بواخات ناس كتير دنيئة... أنا مش فاهمُه... هو حاقد عليا أكيد... بوز فقر...

أغلق باب الشرفة وراءه ونام على فراشه... ووضع سماعة مشغل الموسيقى بأذنه واستسلم لموسيقى فريق كوين... سرح مع الموسيقى قليلا واستدار ليجد صورة أمه ببذلة رقص مرصعة بكل ما هو لامع وزاهٍ... ابتسم إعجاباً بجمال وجهها وأناقة بذلتها التي كشفت عن أجمل ساقين رآهما بحياته...

•

"يا ماجد لحم أمك ده لحمك... إنت إزاي مش حاسس بنار إن كل العالم ده بيتفرج على جسمها حتة حتة؟؟ انت إزاي قابل... يا ابني هي روحها فيك وحتسمع لك... إنت زي أخويا... يا ماجد إنتوا مش ناقصكوا فلوس... اتقى ربنا وخليك راجل!!"

- كلامه دبش... هو فاكرني إيه... دي أمي أشرف من الشرف... عمري ما شفتها مع واحد ولا مرة باتت برة إلا لو في سفرية... أمي أشرف من ستات كتير محتشمات أو محجبات بيعكْوا... أحيانا كمان وهم متجوزين... ده فن... الأهبل المتخلف ده وجع لي دماغي.

" يا ماجد... حس يا بني آدم... خلي الناس بدل ما بتقول ابن الرقاصة تقول ده فلان الفلاني الراجل المحترم... اللي بشوفك بيشوف شاب شيك ومتعلم ومهذب... بيقولوا ده ابن ناس... بعد ما بيعرفوا إنك ابنها تفتكر بيفضلوا يقولوا كده ولا بيقولوا ابن الرقاصة؟!! أنا والله ما قصدي أجرحك بس بجد قلبي عليك وعليها"

- ابن ال******... كلامه كان بيحرقني... مخه قديم وأفكاره أقدم... ده حمايا بيقول لها يا هانم... ويوم ما ساعدِته في فض الخلاف اللي كان بينه وبين عديل الريس على حتة الأرض بتاعة الساحل عمل لها حفلة عزم فيها

كبار البلد... قال ربنا غضبان علينا... هو الحمار ده نسي الخير اللي بتعمله كل سنة وموائد رمضان ودور الأيتام... دي حجت أربع مرات...

بالكاد سمع صوت هاتفه النقال... التقطه بسرعة ليرد على أمه...

– أيوة يا ماما

– بقولك إيه... عندي فرح في البحرين... في بيت الأمير... أخليهم يحجزوا لك معايا ولا مش عايز تيجي؟

– (صرخ) لا أنا حاروح ولا إنتي حتروحي... مفيش رقص تاني... لو رقصتي تاني مش حتشوفي وشي تاني... سمعاني؟ رمى الهاتف من يده وانهار بكاءً... لم ينتظر ليسمع ردها وصرخاتها وشتائمها... ولن ينتظر... ولن يواجهها وينتظر عودتها... ولن يناقشها... سيختفي...

إلى أن يصبح... ابن ناس...

صاحبُ ملكٍ



تدثرت بغطاء صوف خشن ثقيل... في ليلة صيفية شديدة الحرارة زادتها رطوبة الجو ثقلاً حتى باتت تشد الهواء شداً من تحت الغطاء الذي غطت به كامل جسدها ووجهها خوفاً من هجوم الصراصير عملاقة الحجم التي شاركتها وعائلتها بيتهم الجديد.

كان دوراً أرضياً مبنياً بالطوب والمُسلح وأرضه أسمنتية وعرة لم تغطّــها بلاطات تمهــّد طريقاً للحفاة أو أرضاً للنائمين.

لعنت أباها في سرها ووسط دموعها ألف مرة كل ليلة بمجرد أن تبدأ معاناة التنفس تحت الغطاء الثقيل... وتاقت كثيراً لبيتهم القديم ذي الشرفة الواسعة والأثاث المريح وسط جيران عرفتهم وأحبوها منذ نعومة أظفارها... تذكرت حياة عاشتها كإنسانة... طفلة سعيدة بالقليل المتاح والحارة الطيبة وغرف بيتها الصغيرة التي تألقت بها ضفائرها اللامعة ولمبة مكتبها الذي شهد نجاحات مذاكرتها.

لعنت أباها... سائق القطار... وطموحه... فقد باع بيتهم الصغير واشترى قطعة أرض بمنطقة مزارع وحرمهم الزاد والأثاث وسبل المعيشة الأساسية حتى يبني أساس البيت ودوره

الأول... كان البيت الوحيد على مد البصر بين المزارع... بلا كهرباء... ولا مياه ممتدة... ولا جيران.

"حرام عليك يا بو زينب... دي عيشة ولا الكلاب يرضوا بيها... وَدّينا حتة عمار... بناتِيّ حيموتوا مني من القذارة والصراصير وفئران الغيط"

"بس يا ولية... أنا بعمل ده لمين... مش عشانكوا؟!! عايزكوا تبقوا أصحاب مِلك... كام سنة والمنطقة حتدخل كردون مباني ونبقى أصحاب ملك... البيت حخليه أربع أدوار والبنات شاطرين... حيبقوا دكاترة ومهندسي.. حيجيلهم عرسان متعلمين... عارفة يا ولية لو واحدة خابت في المدرسة... والله لأقتلها... إنتي متنحة ليه؟!! بقولك حنبقى أصحاب ملك"

وتنظر إليه الأم مختنقة بالدموع وتنظر إلى النافذة الصغيرة العالية التي هي المصدر الوحيد للهواء وتقول: "إن شاء الله... إن عشنا!"

كانت زينب فتاة رقيقة الجسد عنيدة شديدة الذكاء... كانت الأولى بمدرستها دائماً وكانت جامحة الخيال... فتتخيل نفسها جميلة جدا كزميلتها حياة فتتعلم الحياكة وتصفيف الشعر وتبقى أياما تغزل في صورة جديدة ترضيها... تتخيل لعبة جميلة لم تستطع أن تشتريها فتجوب الحقل المجاور بحثاً عن قطعة خشب

أو مسمار معوج وتبقى الأيام تحاول وتحاول حتى تصنع ما تريد... وبقِيَ خيالها مصدر بقائها، وعزيمتها مصدر قوة حياتها فتغلبت على الأمراض المتلاحقة التي أودت بكثير من صحتها بسبب الحياة غير الصحيّة التي تحياها وتغلبت على كرهها لوالدها... ولكنها لعنته كل ليلة... وكل يوم عايرها أصحابها بحالها المزري... فقد فقدت ضفائرها لمعانهما وانطفأت عيناها من بصيص ضوء لمبة الجاز... لم يتبقَّ لهم من المال ما يكفي للحفاظ على أقل المظاهر لياقةً... فكانت مريلتها المتجعدة تزداد قدماً واهتراءً وأبوها يزداد ادخارًا ليبنيَ الدور الثاني...

وزينب... تنتظر الصباح كل ليلة فقد مقتت الظلام بلا كهرباء... تنتظر الصباح حتى يجيئ... وحين تفتح باب منزلهم لترى المزارع الخضراء... تجري... طويلاً... بسرعة... حتى تفقد ساقاها القدرة على الجري... فتتعب... وتبدأ في تخيل حالها ببيتها القديم ذي الأثاث والشرفة... وتتخيل لمبة مكتبها الجميلة... وتتخيل...

ومرت السنين... وعَمُرت المنطقة... وارتفع البيت... ودخله الأثاث... وبدأت امتحانات الثانوية العامة... واقتربت زينب من بوّابة الحياة التي تمنتها... ورأت نظرات الأمل كل يوم في عيني أبيها... ملاصقة لنظرات الزهو برؤيته الثاقبة وبعد نظره... فقد نجح... وأصبحوا اصحاب مِلك!

أخذت زينب مقعداً خشبياً لونته يوماً بيديها واتخذت من سطح بيتهم مستقراً... نظرت إلى أول شارعهم منتظرة مجيئ أبيها بخبر نجاحها... سيهرول سعيدا بمجموعها الكبير وستزغلل كلية الطب عينيه... هكذا اعتقدت... ابتسمت... بل ضحكت عالياً... ضحكت كثيراً حتى بكت... بكت كثيراً... فستنجح... نعم مؤكد ستنجح فكبرياؤها يمنعها من الرسوب... لكنها...

وتعالى نداؤه... .

"زينب... يااااااا زيييييييينب"

نزلت إليه ببطء ونظر ثابت... وتلقت الصفعة بنفس الثبات...

"إنتي؟؟ ٥٠%؟؟ استحالة... راحت الطب... حتدخلي معهد... ضيعتيلي حلم عمري"

"ليه... مش بقيت صاحب مِلك؟!!"

حتّى العُنُقِ



يَحُكّــني ظهري كثيراً

تؤلمني ساقاي كثيراً

كثيراً

يا ليت يأتي مصطفى الآن فينظفني... كثيراً

آه... كم مضى من الوقت؟ يومان أم يوم... ربما أكثر... أين ساعتي؟ هل سرقتها تلك العاهرة؟؟

"يللا يا أحمد ننضفها بسرعة قبل ما الناس تيجي"

"ريحتها تقرف... قبر... أنا مالي أنا ومال القرف ده!"

"اخرس يا ولد!... دي جدتك يا حقير... يللا... ساعدني أرفعها شوية عشان أغير ملايتها وغيارها"

"برازها وصل لصدرها... إنتي مبتنضفهاش خالص"

هل يتحدث عني؟؟ من هو؟؟ أعرف الحقيرة التي تقلبني بقسوة فأكاد أنكفئ على وجهي... ابنتي العجوز... كانت صغيرة يوماً ما... أعطيتها كل مصوغاتي حتى لا يرثها غيرها...

أريد أساوري يا عاهرة... أين أساوري... نعم يتحدثون عني فأنا الوحيدة التي وصل وسخها العنق.

"ما هو مصطفى ماجاش بقاله تلات أيام... وأنا مش حقدر أشيلها للحمام"

"ما يشيلها زفت ابنك محمد... دي كلها ما تجيش عشرين كيلو بعد ما كشت كده"

"ربنا يريحها ويريحنا بقى!"

"أنا ماشي!"

"رايح فين يا زفت إنت... لسه عايزة أغير الملاية اللي تحت"

"قرفت خلاص"

آه... إنها حفيدتي الجميلة ابنة صغيري المفضل قد أتت لزيارتي... أعرف أنها لا تحبني ولكنها لا تمقتني مثل الحقراء الآخرين... من كان يصدق أن أرقد بلا حول ولا قوة... لا أستطيع أن أتحدث ولا أحرك يدي...

لماذا يتحدثون عني وكأني في غيبوبة... أيها البلهاء... أين صوتي الذي زلزلكم كثيراً... أين لساني الذي أذاقكم من مراره كثيراً... هل تشمتون بي!

"لازم تجيبولها ممرضة تاخد بالها منها يا طنط... أو نوديها مستشفى"

"منين بس يا حبيبتي... دي مش سايبة ولا مليم... وبعدين أنا مش مخلياها ناقصها حاجة... ده أنا ضهري بيتقطم من كتر ما بشيلها للحمام"

"أنا تحت أمرك يا طنط في أي حاجة وربنا يعينك بس برضه ممرضة أحسن"

حتى أنتِ يا حفيدتي الجميلة... حتى أنتِ بلهاء... أتصدقين هذا الهراء... خذيني لبيتك أو للمستشفى... ألا تشمين رائحتي... أزيحي غطائي قليلاً لتجديني أسبح في قذارتي... من كان يصدق أن يؤلمني كل جسدي... حتى التفكير يؤلمني... من كان يصدق أن أتحول إلى جيفة حية يتمنون موتها. يا حقراء... ليتكم رأيتم كم كنت أدير رءوس المعجبين بزماني الجميل... حتى بإيطاليا... لن أنسى حين تقدم إليّ ماركو ليطلب مراقصتي متجاهلاً زوجي... أبا هذه العاهرة التي تنسى إسقائي بعضاً من المياه قبل أن تنام... أو ربما لا تنام... ربما تشاهد فيلما سخيفاً مثلها... أو تثرثر مع ماجدة جارتها العانس القبيحة... أو ربما تترك زوجها البائس يضاجعها وتتركني عطشى... طوال الليل... حتى أشعر أن قنفذاً سكن حلقي... أين ذهبي وساعتي؟!!

"إزيها دلوقتي" سألها مصطفى وهو يرمقني بابتسامة حنونة... آه... الآن سينظفني... إن ظهري يحرقني حقاً... هيا... لا تثرثر... هيا احملني للحمام.

"طيب، أنا حاخدها أحميها بقى بعد ما الضيوف يمشوا"... لا أيها الحمار... الآن... ظهري يحرقني... الآن.

"لا يا مصطفى... الجماعة مش غرب... حنشرب إحنا القهوة بره في الصالون لغاية متخلص... أصل إنت مش مضمون... لو مراتك كلمتك حتطير وتسيبنا هيهيهيهي"

"حاضر"

أخيراً مياه ساخنة غير بولي... أخيراً سَيَحُكَّ ظهري باللوفة وسأكون نظيفة... ليته يستخدم صابون صهري البائس... فهو مستورد ورائحتة جميلة.

"يا سعاد... يا سعاد... تعالي بسرعة"

لماذا ينادي تلك العاهرة... لن تساعده... لا أريدها... هي قاسية وستمسكني بقوة وعظمي الوهن يؤلمني... لا أريدها يا أبله.

"فيه إيه يا مصطفى... مالك مذعور كده ليه"

"بصي يا سعاد... جلدها بيطلع في الليفة"

"يا نهار إسود... .لااااااا... إيه القرف ده... .طب بطل طيب"

"ضهرها متبهدل يا سعاد وجلدها باظ حرام عليكي... إنتي مش بتقلبيها زي الدكتور ما قال؟!!"

" طبعاً بقلبها... ده أنا مابنامش طول الليل عشان أقلبها وأشربها ميه"

ها ها ها... مازالت كاذبة محترفة... تماما كما أتذكرها دائماً...لماذا يبالغ مصطفى هكذا...لا يمكن أن يتساقط جلدي... لا يمكن أيها الأبله.

احملني ولا تناديها ثانية... لا أحب صوتها... عالٍ جداً وحاد... مثلي ها ها ها

متى سأموت؟؟ الآن أم غداً... يا ليته الآن... سأرتاح وأنام طويلاً ولن يحكني ظهري ولن يقتلني الظمأ... هذا أكيد... ولكنني خائفة من الموت... ماذا سأشعر... بألم في حلقي واختناق... أرجل شديد الطول والنحول والسواد هو من سيشد روحي ببطء مؤلم... وهل سأراه أمامي يفعلها؟ متى سيأتي الرجل... أنتظره منذ فترة طويلة... هل سأراهم يمثلون البكاء والحزن أم هل سأكون في عالم آخر أم لن أشعر بأي شيء لأنني سأكون قد عدت إلى العدم؟؟ ستفرح بخلاصها مني تلك العاهرة... أين هي بأي حال؟!

إنني عطشى... كما أنهم نسوا أن يتركوا لي بصيصًا من الضوء... لا أرى أي شيء ولا حتى الأطياف التي أراها كل يوم...

من كان يصدق!



كرسيٌّ عالٍ

لماذا الخوف؟!! إنه فقط مطعم مثل جميع المطاعم... كلمة بار التي تضوي بلافتة بالمكان تعني وجود مشروبات مسكرة أسموها روحية كنوع من تنميق حالة السكر والمجون التي تحتاج الشاربين من مرتادي هذا المكان... إلا أنه واقعياً لا فرق بين مسكرات مكان أسموه بارًا ومكان أسموه مطعمًا... كلاهما به طعام ومناضد ومسكرات وأغانٍ تسلّي المرتادين.

آه، إلا أن مقاعد البار "كراسٍ عالية".

فساقي المسكرات يعمل على طاولة عاليه تعطيه حرية الحركة وإعداد مشروبات الزبائن بأريحية... من يعلم؟!! ربما كان البار فيما مضى ذا مقاعد عادية الطول ثم تطور الأمر مع الوقت لتصبح كراسيا عالية... ربما مل زبائن الماضي انتظار الساقي حتى يعد مشروباتهم فكانوا ينتظرونه وقوفاً ويرون كيف يعد خليطًا من مشروبات حادة المذاق حلوة التأثير... يجوز أن يكون أحدهم ذا ساقٍ معلولة لم يتحمّل الوقوف عليها طويلاً وحين انتبه مدير البار إلى معاناة الرجل لم يجد المقاعد العادية تليق بالبار العالي ومن

هنا تمت إطالة السيقان... وبعدها أصبح ما يفرق البار عن المطعم هو سيقان الكراسي العالية.

لماذا أهتم الآن بتاريخ البارات؟!!

كل ما يهمني في الأمر أن أدخل لأرى حبيبي يغني... كم أنا محظوظة... وجدت رجلاً يحبني حقاً... نعم، أنا أعلم كم يحبني. لم يقُل لي كم يحبني ولم أسأله.

إنه من السخف حقاً أن يقاس الحب بالكم أو العدد... بل أن يقاس إطلاقاً.

الحب هو أعلى قيمة ولا يُقاس فلا أتخيل أن يحب أحد بعشرة وآخر بألف... وقتها لن يستقيم المعنى وقد تتشاجر الحبيبة إذا علمت أن صديقتها تُحَب مائة ضعف حبها... قد يمتد الأمر حتى إلى اشتراط الفتاة أن تعرف ما القيمة التي يستعد لأن يحبها بها الرجل قبل الموافقة على استقبال مشاعره... فكرامتها لن تقبل أن تكون محل سخرية الجيران والأقارب.

سخف...

هذا الزخم والازدحام في مثل هذا المكان الصغير كله من أجل حبيبي... إني حقاً محظوظة.. ليس لأنه أشد الرجال إخلاصاً فأنا أعلم أنه لن يبخل أبداً بنظراته ليشبع غرور معجباته... وطبعاً ليس لأنه أكثر الرجال وسامة فهو ذو أنف عظيم وقامة تكاد أن

تساوي قامتي.. أنا محظوظة حقاً لأنني وجدت من يستطيع إخراج هذا القدر من الفن للوجود.

لطالما وجدت الموهبة شيئا مثيرا للدهشة بَيْد أنها لم تكن أبداً من صنع بشر بل هي ماء سحري تعانق بدماء من زانه... لكن الروح التي تستبيح لنفسها مقاسمة الوجود هذه الموهبه إنها حقاً روح عظيمة... وكم أنني محظوظة.

أشفق على الرجل ذي الساق المعلولة أكثر الآن... فساقاي تؤلمني من كثرة الوقوف والانتظار... جل ما أريده هو كرسي واحد فقط... عالٍ... كرسيّ عالٍ... فحبيبي سيحتل المسرح بعد قليل... سأجلس وحدي على تلك الطاولة الصغيرة المستديرة... سأنظر وحدي إلى الزهرة الحمراء التي تزين منتصفها... وسأتناول مشروبا ما... ليس من المسكرات بطبيعة الحال.
نعم، الآن وأنا أنظر إلى مختلف ألوان الملابس وأطوال الشعر وأطوال الفساتين ومقدار ما ظهرمن أفخاذ النساء... يظهر لي واقع أنني قد لا أمتزج شكلاً في هذه اللوحة الصاخبة... لا يظهر من جسدي إلا وجهي وكفي وما ظهر من قدميّ... فحذائي- الذي هو جديد وأنيق بالمناسبة- مفتوح من عند الكعب... ليست قدمي... بل هو كعبي الذي يظهر.

لم أقصد المماطلة في القول بأنني محجبة... نعم، أغطي شعري بقطعة قماش من نفس لون الجاكيت الذي أرتديه الليلة. كم أنا محظوظة... فقد أحبني الفنان رغم أنني محجبة... أكثر الله من خيره... نقيّ هو... ربما سَئِم ما تعرّى من أجساد النساء... وربما سئم من حجابي ولكنه يجيد التظاهر بعكس ذلك. وأخيراً أعتلي الكرسي... كما أنه موقع رائع... بعيداً عن الصخب إلا أنني أراه بوضوح... هيا هيا... كفاك ضبطاً للإيقاعات والأنغام... غنِّ لي... أنا وحدي... الملكة المتوجة. لم أرَه طيلة العام الماضي إلا وركز كل انتباهه علي أثناء الغناء... أعلم أنه يغني لي أنا وحدي... آه، هذا الخدر الذي يسري بأعصابي الآن وقد بدأ يغني همساً هذه الأغنية... دائماً ما يبدأ بها فقرته... أتذكر الآن أول مرة رأيته فيها حين غنى هذه الأغنية وبدأنا قصة حبنا... يومها انتبه لي أحد الحراس وأتاني ليزف إلى الخبر المؤلم... مظهري لا يليق بالمكان... يريدون أن يسلبوني قطعة القماش التي تتناسب مع الجاكيت الكلاسيكي الذي كنت أرتديه يومها... أيضاً.

بكيت ورفضت الهبوط عن الكرسي العالي... انتبه حبيبي وأتى إليّ معتذراً بل ووبّخ الحارس... شكرته بفائض آخر من الدموع وأكملت الليلة محبة إياه ومنتشية من إحساسي بكم أنا محظوظة.

نعم إنها قصة حب حقيقية... بها ما في قصص الحب من سعادة وبؤس وحروب وتضحية.

انتظرت طويلاً بعد هذه المرة حتى عرفت موعد الحفلة القادمة التي سيحييها وقلقت كثيراً أنها أيضاً بمكان ذي كراسٍ عالية... فكرّت مطولاً وخطر لي أن أضحي أنا أيضاً من أجل حبيبي... سأحارب وأتنازل من أجله... ذهبت يومها بالموعد المعلن ووطأت قدماي المكان واستمتعت بنظرات الإعجاب التي لاحقتني... أعلم كم أبدو فرنسية في الفستان الأسود الذي يزيدني بياضاً ويزيد شعري الأشقر وهجاً... لم أستطع أن أضحي وأظهر ساقيّ فكان الفستان طويلاً... ركض الحارس نحوي عارضاً على أعلى كرسيّ بالمكان... وركض نحوي حبيبي متأسفاً... لم ينطق ولكنه نظر إليّ متسائلاً عن قماشتي التي كانت يجب أن تكون سوداء... ابتسمت في حياء... فقال: الأول أحلى... ثم تركني وذهب حتى يشارك الوجود فنه... كم أنا محظوظة.

توالت المرات والشهور واعتليت الكراسي العالية ولم تفارقني قماشاتي... حرص دائماً على أن يكون لي دعوة باسمي حتى لا أشعر يوماً أن وجودي غير مناسب بالبارات... لا أستهين بجسدي وأنا أشعر بانتمائي إلى رجل... وقد سئمت البحث عن سبب هذا... ربما فُطرت المرأة على حب الظهور إلى

أن يمتلئ قلبها وعالمها باحتواء رجلٍ ما... ربما كان التبريرُ فقيرُ المنطق هذا هذياناً إلا إنني أجد معظم المعاني مشابهة... احتواء أخٍ ما، أبٍ ما، حبيبٍ ما أو زوجٍ يحمي مخالب المرأة من حدتها. كم أنا محظوظة... ها هو من يحتويني يصيب قلبي بالدوار من عذب ألحانه.

ها هو يمسك بالكونترباس ويلفه كثيراً كثيراً كثيراً مبهراً السيدات الراقصات والرجال المترنحين... وقلبي الذي يتشبع حباً له... وعقول نساء وحيدات يعتلين كراسٍ عالية تمتلئ بخيالات تضمه وتضمهن... يا لهن من يائسات.

آن وقت الرحيل يا حبيبي؟؟!!

أستودّعني بنظراتك أم ستنساني في الزحام؟؟!!

آه، تذكرتني بابتسامتك المودعة... عمت مساءً حبيبي.. أراك قريباً من إحدى الكراسي العالية.

نَظريّة الزُّجاجة



كان ناعماً ونظيفاً ومنمقاً وأنيقاً بشكل مستفز... مشيته، ملابسه، نظراته وضمة شفتيه تؤكد أنه نوع غريب من الرجال لم أعرف كيف أصفه ولا كيف يمكن أن يُلَقّب! نظرت إلى فنجان قهوتي وأنا لا أكاد أن أصدق أنني ظفرت بمقابلة صحفية مع هذا الشخص ذي الهوية المجهولة... حظٌ غريب وتلاحق سريع لأحداث سخيفة أوصلتني إلى طاولته للتحدث...

كان طلبه أن لا أكتب ملاحظات ولا أسجل الحديث... كان خوفي الأكبر أن أنسى تفصيلة هامة من حديثنا... لم أكن أعرف ماذا أتوقع... أتاجر سلاح هو؟؟ جاسوس؟؟ طيب... رجل أعمال واصل للرئاسة؟؟ توقعت الأخطر للهالة التي تحيط به والمبالغة التي تقطر من كل شيء فيه!

أنهى حديثة الغامض ورمقني بنظرة تليق بفيلم كازابلانكا... ثم قال: "مكنتش أعرف إن الصحفيات ممكن يبقوا بالجمال ده!"

– "حضرتك منين أصلاً... مصري؟؟ ولا بقالك كتير عايش في مصر؟"

- "سؤالك غريب... هو أنا ممكن أدي إيحاء إني مش مصري؟"
- "آه... لغتك مش دارجة... كلاسيك زيادة... يعني دلوقتي مفيش رجالة بتعاكس كدة... دلوقتي بيقولوا: مكنتش أعرف إن الصحفيات مُزز كده"

- "هاهاهاها... إنتي شقية أوي"

- "شفت؟ ودي كمان... محدش بيقولها بالطريقة دي"
- "يمكن عندك حق... شغلتي علمتني الكلام بكياسة معظم الوقت"
- "ده كان حيبقى سؤالي التاني... عن عملك... لكن للأسف مضطرة أستنى إجابة السؤال الأولاني"

- "مش بقولك شقية... عموماً يا مدام... السؤال الأول مش حيفرق في حاجة بالنسبة لموضوع التحقيق الصحفي بتاعك... لكن عملي هو اللي جايبك هنا النهارده"
- "الحقيقة أنا معنديش فكرة إنت بتشتغل إيه بالظبط لكن حركتك جوه الفندق وغموضك وشكلك هم اللي لفتوا نظري ليك وأيقنت إن وراك قصة... وأنا طبعاً شغلتي القصصههه"
- "أنا طبيب من نوع خاص... بعالج كبرياء السيدات الجميلات اللي زيك كده"

أعتقد إن صورة لعلامات البلاهة وعدم التصديق كانت مرسومة بيدي فنان كاريكاتور على ملامح وجهي... لم أستطع

أن أتفوه بكلمة فعالجت تعابيري سريعاً ونظرت إلى سيجارتي وما يتساقط منها من رماد في الدائرة البلورية القابعة أمامي.

- "أشرح لك أكتر ولا فهمتي؟ حاشرحلك أكتر... أول ما اتخرجت من الكلية كنت بشتغل في المهندسين... كنت كل يوم الصبح أشوف واحدة منقبة بتركب ولادها الباص... عينيها ملهاش حل... مش عشان عيون جميلة... لأ... عشان النظرة اللي كانت بتبصها لي فيها نداء واستغاثة... فيها جوع وإعجاب... بعد فترة اتعرفنا وعرفت حكايتها واتفقت معايا اتفاق مذهل... قالت لي حانفضل نحب بعض لغاية ما جوزي يرجع من الخليج! أول ما يرجع تنساني تماماً... طبعاً وافقت... كانت قمر... كل حاجة فيها حلوة.. كل تفاصيلها تجنن... كانت رائعة في رغبتها... وعلى طول عايزاني... أحياناً كانت بتسيب لي عربيتها... وكتير كانت بتسيب لي فلوس... كنت برفض لكن هي كانت بتصر وتقول لي: إنت لسه متخرج ومحتاج مصاريف وأنا معايا كتير... بعد ست شهور حب مجنون جوزها رجع من السفر وهي وبكل بساطة فكرتني باتفاقنا اللي أنا بصراحة كنت نسيته... اتعذبت من غيرها... كنت بكلمها وأعيط وهي بكل قوة تقول لي إنت لسه صغير بكرة تنساني... وسابتني"

- "أصعب حب... بس ما بني على باطل فهو باطل"

– "هاهاهاهاهاها" ضحك ضحكة كبيرة أسمعت الطاولات المجاورة لكنه أنهى الضحكة بتعبير ألم شديد ارتسم في عينيه ثم قال"مع إنك مش صغيرة أوي... يعني تقريباً عندك تلاتين سنة... مش كده؟"

– "خمسة وتلاتين"

– "واو مش باين عليكي سنك خالص... ده يدعو للاستغراب أكتر!"

– "إيه الغريب في كده؟"

– "إنتي لسه جوه الإزازة"

– "بمعنى؟"

– "شوفي... كل واحد فينا بيتولد جوا إزازة شبه رحم أمه... الإزازة دي هي الأمان وتربية الأهل والمجتمع والأفكار المغلقة اللي مش شايفة الدنيا على حقيقتها... اللي جوا الإزازة بيبص على الناس اللي بره الإزازة وبيحسدهم على حياة الانطلاق اللي عايشينها واللى بره الإزازة اللي اتدنسوا من وسخ الدنيا وشافوا عُهرها بيحسدوا اللي جوه الإزازة على براءتهم والأمان اللي هم فيه... وانتي مصدومة من اللي بحكيهولك مع إنك مش صغيرة وأكيد شفتي كتير في الدنيا... ده معناه شيء واحد... "

– "أنا عمرى ما تمنيت أبقى زي الناس اللي بره الإزازة –لو سمحتلي أستخدم تشبيهك– إنما إيه المعنى اللي انت متخيله؟"
– "إنك رافضة تشوفي اللي بره الإزازة مع إنك خرجتي منها... لا استني.. أنا غلطان... انتي مش جوه الإزازة... انتي خرجتي منها قريب واتصدمتي فعاملة نفسك مشفتيش حاجة ولسه جوا"
أحسست بضغت دمي يرتفع... أحسست بأنفاسي تختنق... لا أعلم هل لأن كلامه يقدّم نظرة مخيفة عن الحياة أم لأنه على حق!
– "خلينا نكمّل كلام عنك إنت... خفيت إزاي من الجرح بتاع حبيبتك؟"
– "نمت مع أختها!"

– نعم؟!!"

– "أختها كانت شافتني مرة عندها بالصدفة ومع إننا عملنا نفسنا قال يعني أنا أخو واحدة صاحبتها وجايب لها حاجات إلا إني حسيت إن أختها فهمت كل حاجة خصوصاً نُهى ماكانتش لابسة النقاب قدامي... أختها كانت مش حلوة أوي زيها بس كانت أغنى... كانت ذكية... مكالمة في ميعاد في مكالمة... لقيتني في شقتها... قالت لي أنا عازماك على الغدا وجايبالك هدية... الهدية كانت ساعة شوبار... كان تنمها تمن عربية شيك... مكنش ينفع أرفض الساعة اللي بعتها بعد كده وجبت عربية...

وكمان مكنش ينفع أرفض متعة سهلة مع واحدة فيها كتير من حبيبتي... وقد كان"

- "أنا مش بحكم عليك طبعاً بس إزاي قدرت تعمل كده... إزاي بقيت كده؟"

- "الحب ما لوش تمن وأديني جربته واترميت بعد ما بقاش ليا لازمة... لكن فيه حاجات تانية ليها تمن والأهم... إني مش حنجرح تاني"

- "وبعدين..."

- "انتي عارفة إنك تشبهي واحدة أعرفها..."

-"... ... ...".

-"أهي دي كانت وين وين سيتيواشن"

-"إزاي يعني"

-" هي من عيلة غنية أوي... اسمها سالي... كان عندها أربع ولاد... جوزها مبيجيش جنبها تقريباً غير كل فين وفين... اللي عرفته بعد كده إنه كان غاوي يصطاد ستات من الماريوت... المهم..."

- "لا ثانية واحدة... اشمعنى الماريوت؟"

- "أسهل حتة فيها النوع ده... أسهل حتة فايف ستارز"

- "أوك كمل بليز"

- "هي كانت مجروحة أوي... مبقتش مكفياه... سايبها وبيفضل يدفع تمن متعته مع واحدة بتمثل إنه بيمتعها... هي كانت محترمة بس محتاجه حنية... والغريب إنها كانت بتبعت لي مبالغ مهولة من غير ما تطلب أعمل لها حاجة... هي اللي كانت بتعمل لي"

- "أعتقد كده كفاية... حضرتك مادة غنية جداً وحكاياتك شكلها مش حتخلص... أنا بكتفي بهذا القدر بس عندي سؤال أخير"

- "وشك بقى ألوان... جميل أوي إن لسه فيه ستات بتتكسف... إيه سؤالك؟"

- "كل اللي حكيته ما يفسرش المستوى والغموض والحراسة اللي إنت فيها"

- "اللي بحكيهولك ده البدايات... وإنتي اللي مش عايزة تسمعي عن السلالم اللي وصلتني لأعلى المستويات"

- "قصدك المستويات الاجتماعية والمادية؟"

- "لأ... والسياسية!!"

- "... ... .."

- "مصدومة أكتر؟"

- "مش ده اللي صادمني"

- "كلميني..."

- "مش عايزة تحقيق صحفي عنك يبقى حديث شخصي عني"

- "دي لحظة إنسانية خاصة اتعلمتي فيها عن نمط عايش في العالم اللي بره الإزازة بس إنتي كنتي مش شايفاه... وأنا بستلذ استراق النظر لشوية نقاء كنت ناسيهم... تعبير وشك وأنا بحكيلك يسوى بليون يورو"

- "سقف العملات والمبالغ عندك عالي أوي"

- "بطبيعة الحال هاهاهاهاها"

- "آه... صحيح!"

- "إيه اللي صادمك؟"

- "التشابه"

- "أعترف إني مش فاهم..."

- "التشابه اللي ممكن يغير حياة واحد زيك كان شاب بيبتدي كاريره مع اللي ممكن يبوظ حياة بأكملها... نظرية تانية غير نظرية الإزازة... إن الإنسان هو الوَحش والضحية في نفس الوقت....."

لملمت سجائري وقداحتي الحمراء ونظارتي الشمسية داخل الحقيبة وهممت أن أقف عندما أمسك يدي وقال "لازم تمشي دلوقتي؟"

كانت في عينيه دعوة صريحة لم أحاول إخفاء فهمي لها لذا قلت: "مش أنا!"

بِضْعٌ وأربعون



ما هذا الذي أراه بالمرآة؟!

لِمَ لم ألاحظ شعري الذي تراجع تحديده لجبهتي العريضة؟
لِمَ لم أعر لبروز بطني انتباها ولم أرَ الشعرات البيض اللاتي يلمعن بشاربي؟
منذ متى تدلت خصيتاي هكذا؟

أمسك بالمنشفة البيضاء الصغيرة ليزيح البخار الذي حاول أن يخفي إنعكاس صورته بالمرآة... رأى نفسه مجدداً.. فأمسك بمشطه الصغير وصفف شعره القليل مراراً إلى الأمام عندما قرر زيادة كمية الدهان الشمعي الذي يصفف به شعره... استمر في التمشيط... والتفكير في صولاته وجولاته السابقة وأيام شبابه ومجونه عندما سمع صوت زوجته تنادي من خلف الباب: "يللا بقى... بتعمل إيه كل ده؟!"

نظر إلى نفسه بالمرآة متخيلاً إياها وقد أعطاها نظرة استياء وملل!
ربما كان عليها أن تعتني بالشعرة الثميكة الشامخة أسفل ذقنها! فقد تدلّت هي الأخرى...

لا يوجد توافق بيننا وأنا معذور في تمنّي غيرها... أريد شابة ناهدة... ربما شقراء ذات سيقان رفيعة...

هل ما زلت مرغوباً وقد تدهور حالي مع سنين العمر؟؟!!

سأرافق إحداهن ولن أتجشأ... سأكون رقيقاً مهتمّاً أنيقاً وسأدعوها لعشاء رومانسي... نعم سأكون رومانسياً... أحتاج إلى التدليل الذي حرمتني إياه زوجتي...

لن أُخطِئَ... فقط سأعيش!

لست ثوراً معصوب العينين مشدود الوثاق إلى ساقية تدرّ عليهم مالا... لي حقوق!

أنا لست عجوزاً بعد... أستطيع أن أفعلها مراراً...

"إيه حكايتك؟؟ انت رايح تتجوز؟؟ خلص بقى عايزة أدخل الحمام..."

عُيونٌ صغيرة



نظرت إلى حذائها الأبيض الذي تمنت لو تكبر يوماً حتى يلمس الأرض ولا يكون معلقاً هكذا بل وتضع ساقاً على ساق كما يفعل الكبار...

كانت في السابعة... جالسة على كرسي ذهبي ذي ورودٍ حمراء استقرعتيقاً في بيت خالتها... وكان الرجل غريب الشكل جالساً في الطرف الآخر من غرفة الصالون... ينظر إلى ساقي أمها الجميلتين... بجانبه حقيبة بلاستيكية ملونة تشبه الحقائب التي كان يأتي بها أبوها من سفرياته المتعددة ولهذا عرفت ما بها.. شيكولاتة أجنبية فاخرة... ركزت بصرها على الحقيبة وركزت استيعابها على ساقي أمها الجميلتين البيضاوين اللامعتين وعلى شارب الرجل غريب الشكل.. كان شارباً مربعاً منتظماً استقر أسفل منتصف أنفه تماماً... تماماً مثل شارلي شابلن الهزلي! لكنه كان عجوزاً جداً على الرغم من شعره المصبوغ وحذائه الأصفر الذي امتلأ بمربعات صغيرة بُنية.

جاءت خالتها حاملة فناجين القهوة ووراءها زوجها الذي حمل قطع الجاتوه والأطباق... ضحكا دون سبب... لعله

الترحيب السمج المصطنع لفرحتهما بالعريس غريب الشكل.. عرفت الفتاة أنه لأمها دون أن ينطق أحد بذلك... وأحست أنها غاضبة من أبيها الذي تركهما دون أن تدرك ذلك.. وعرفت أن أمها متقززة لكن منقادة دون أن تعي ذلك.. إنه عقل الطفل الذي يشعر دون استيعاب بكل دقائق الأمور مهما عظمت وعمُقت.

قام الرجل حاملاً حقيبة الشيكولاتة ثم وضعها بجانبها بعد أن بلل خدها الصغير بقبلة لُعابية باردة مهنئاً أمها على إنتاجها فائق الجمال.

ألقت نظرة داخل الحقيبة فوجدت كمية كبيرة من أحلى أنواع الشيكولاتة.. تماماً مثل التي كان يبتاعها أباها... فتحت إحداها وأكلتها.. أحبتها... وكرهته وكرهتهم جميعاً...

ظلت عيونها الصغيرة تنتقل بين القطع اللذيذة التي في يدها.. وساقي أمها... وشارب الرجل غريب الشكل... وضحكات خالتها وزوج خالتها... وضعت ما بيدها داخل الحقيبة ثم نزلت من مقعدها العالي ممسكة بالحقيبة بأصابع صغيرة قوية ثم وضعتها بجانب الرجل غريب الشكل ناظرة إليه بعيونها الجميلة الصغيرة وقالت له وهي تجهش بالبكاء: مش عايزة!!

رداءٌ أبيضُ



تحسست رداءه الأبيض بكثيرٍ من الحب حتى أحست أصابعها وروداً تنثر العطر على نسيجه النقي...

ناولته إياه وعلى ثغرها ابتسامة شفافة تكاد تنطق أشعاراً تدل على عشقٍ لن يبلى وإن بلت خيوطُ الرداءِ ورثّت...

"مش عارف أقولّك إيه... مدلعاني أوى يا جميلة"

"ما إحنا قلنا بقى من زمان... اللي يلاقي دلع ومايدلعش يبقى إيه؟"

ضحك كثيراً ورمقها بحبٍ حاول جاهداً تكبيله وتحجيمه وخنقه... لكنها تعرف نظراته وأنفاسه وأفكاره دون أن ينبس ببنت شفة!

أمسك بالرداء وكأنه يمسك بما تبقى منهما.. من حبهما الذي فاق تخيلات عمره الذي جاوز الأربعين بسنوات... حبهما الذي أعطاها نبضاً جديداً لم تعرفه يوماً... الذي أعطاه قلباً كان قد تجمد في برودة حياة أقنع نفسه كثيراً أنها انتهت... أوصالاً ظن

مطولاً أنها قد قطعت... حساً فقده وأعادته له بعد ثوان من أول نظرة جمعت لحظهما معاً.

"أجيب لك إيه معايا من السفر؟"

"كالعادة..."

كانت عادتها ألا ترغب إلا في عودة سريعة وسلامته... كانت عادتها الانتظار... تخيل لحظة اللقاء بعد بُعد متكرر أنهكها شوقاً... وكانت عادته الفرح برؤياها... التمرغ في حضنها الدافئ... تقبيلها أهدابه وأنامله وقدميه... النوم آمناً على صدرها المتهدج عشقاً لوجوده..

كانت حقيبته ملأى... مكتظة بأشياء ستكفيه ثلاثين يوماً وليلة ستكون هي فيها روحاً وحيدة... وسيكون هو فيها روحاً جديدة!

أخذ الرداء الذي ابتاعته له من ساعات قليلة... أمسك به وقلبه بين يديه شاعراً بوقوفها خلفه... ممتناً ومتأثراً... وضعه بكثير من الاهتمام في المكان الوحيد الشاغر بحقيبته وأحكم غلقها وكأنه يغلق فصلاً من حياته لن يعاود فتحه... فصلاً تناول حكايتها وقلبها وما تبقى من طاقة الحب لديها...

"خلاص... أنا حامشي بقى"

"طيب... خللي بالك من نفسك"

"إنت كمان خللي بالك من نفسك"

احتضنها حضناً خافتاً... حيياً خجولاً... حضناً يريد أن يجمح ويملأ الدنيا صراخاً بكلمة تكوينها حرفان ومعناها كون من المشاعر... تركته أولاً وهي تجاهد دمعاً غزيراً اختنق بدون علمها...

مشت بخطوات سريعة تجاه الباب... وقف ممسكاً بالباب ومودعاً شعرها الممتد بلون شمس الصباح الخافت... مودعاً عيناها هادرة الأمواج الممتلئة حناناً وزرقة... قال وداعاً وفى عينيه غصة مؤلمة من شوق محقق وحبٍ هارب...

استدارت ومشت ولم تسمع صوت انغلاق الباب... عرفت أنه ظل واقفاً...لم تستدر... أسرعت الخطى... فقد أكملت مهمتها... ابتاعت له الرداء الأبيض... سيكفر عن ذنوبه الآن... سيكفر عنها الآن... .سيحج!

عَرُوسْ

بالرغم من أعوام عمره القليلة.. استطاع أن يتذكر أن نفس هذا المشهد قد تكرر العام الماضي..

كانت بلدته تعج بالزائرين من القرى والمدن المجاورة.. فهل يمكن أن تخلو طنطا ويعمها الهدوء في مثل هذه الأيام؟

أيام المولد..

لم يكن يرى من كل هذا المرج والزحام ويحب إلا صورتين..

الرف العالي الذي لا تطاله رقبته ذات التسعة أعوام.. ليرى أجمل ما رأى وتمنى في حياته..

عَرُوسْ بألوانها الزاهية القوية التي تكاد تصرخ في وجهه جذباً له حتى يسيل لعابه شوقا إلى قطعة منها..

عَرُوسْة المولد.. كبيرة الحجم.. ذات الرداء متعدد الألوان والطبقات.. وكأنه يحوي بداخله سكر وحلاوة العالم كله..

أو على الأقل عالمه الصغير!

كان يحلق بخياله إلى دنيا الأحلام حيث يمكن له ارتداء جلباب أزرقَ اللونِ ذي طاقية من نفس النسيج توحي بالفخامة.. تماماً مثل طاقية سيد.. ابن الحاج فتحي أكبر تجار المركز.. بل ويمكن له أن يمسك بيد أبيه الحاج فتحي الذي سينفخ صدره زهواً بمحفظته المكتنزة بالمال الظاهرِ انتفاخُها من تحت جلبابه.. وبابنه الحاج الصغير..

و بالطبع حينها سيتوقف أمام العروس وسيكتفي بالإشارة إليها حتى يحملها له تابعه الهزيل المطيع بعد دفع حفنة جنيهات يزيدوا قليلا عن ثمنها إلى البائع..

لعق الفتى شفتيه تلذذا بحلمه الذي كره أن يفيق منه ويترك العروس أو على الأقل ما يمكن أن يطاله منها وهو رؤيتها!

لكن ثاني أحب المشاهد إلى قلبه جعله يتخلى عن سكرها..

كانت حُسنة بنت الشيخ عبد الله إمام المسجد القريب من بيته الصغير.. تمشي مع أبيها وقد أمسكت بطرف جلبابه..

نظر وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة كادت أن تشق وجنتيه.. إلى لمعة شعرها..

فقد اعتنت أمها بوضع الكاز والفازلين على شعرها وصنع فرق عظيم في منتصف رأسها حتى تتدلى منه ضفيرتان شديدتا الطول والانتظام..

عجب الفتى لدقة الفرق وفكر أن عصاه الخشبية التي يستعملها في الكتاب قد لا تكون بهذه الاستقامة..

نظر إلى يد حُسنة الصغيرة وهي تتشبث أكثر وأكثر بجلباب أبيها خوفا من انزلاق يدها وبعدها عن والدها..

لم يتمنَّ أن يمسك طرف الجلباب معها.. بل تمنى أن تترك الجلباب وتمسك يده هو..

كم تمنى أن يضحي بنفسه ويكتفي بقطعة صغيرة قد تقع من العروس حتى يقدمها لها..

كانت أفكاره الطفولية هادئة وبسيطة بالرغم من دوي البمب ومسدسات الأطفال التي تملأ الجو بهجة والتي نبهته أن الفتاة تبتعد..

جرى سريعا ليلحق بالفتاة..

نظر بعيدا ليراها تستعد للانطلاق بدراجة استأجرها لها أباها لتلهو قليلا مع بقية الأولاد.. رأى شرائط ملونة تتطاير مع تحرك الدراجة مودعة له فأشار لها مودعا.. مبتسما ابتسامة يشوبها حزن خفيف..

و حينها.. تذكر أهم ما في المولد..

و كل ما يستطيع أن يتحصل عليه..

ركض سريعا واصطف معهم لاحقا بنفس إيقاع حركاتهم.. قائلا..

الله حي.. الله حي!

تريكو



"شتلتين صوف على قطن أزرق فاتح وتلاتة أزرق غامق..
كحلي يعني"

تسلقت البائعة سلما صغيرا ذا ثلاث درجات حتى تطال طلبات السيدة..

التي انهمكت في فرز كل أنواع وألوان الخيوط بعينيها وفي التطلع لهم بنَهم.. كم ودّت لو امتلكت ما يكفي من الجنيهات حتى تبتاع كل ما طاب لها وكل ما يمكن أن يدفئ أفراد عائلتها الصغيرة..

لمحت في أحد الأركان لونا راقَ لها كثيرا وودت لو سألت البائعة ذات الترتر المتناثر على رأسها كالثريا عن سعره..

لكنها آثرت الصمت..

ناولتها الفتاة نداغة اللبان طلباتها.. وحملت الخيوط وكأنها تحمل جائزة وهمت في السير وكأنها على موعد رائع طالما تمنته

فكرت في ابنتها الشقية هبة وابتسمت عندما تخيلت كيف تعلق معطفها بالمسمارالطويل المتربص للأكمام..

فتحت باب شقتها بسرعة ودخلت لتضع حقائبها جانبا وتبدأ بسرعة وبحركات رشيقة في تحضير طعام الغذاء لأسرتها الصغيرة..

اطمأنت على رضا ابنتيها وولدها وزوجها الهاديء من عمايل يديها وحياة عينيها وغسلت الصحون في عجالة لتأتي بكنزها الثمين من الخيوط وتأخذ وضعا مريحا على مقعدها القديم الذي شهد ولادة أحلى إنجازات إبرتها الطويلة..

نظرت يمينا على غرفة الولد وتمنت أن يخفض ما كاد أن يخترق الحوائط ويثقبها من ضوضائه.. نظرت يسارا لترى ظل الفتاتين يتحرك أمامها من وراء زجاج بابهما.. بل وخرجت "تُقى" البنت الكبرى وقد حملت ملابس ومنشفه وقذفت لأمها بأحلى قبلة في الهواء وهي متجهه إلى الحمام..

بدأت في عد العُقَـــد التي ستحتاجها لحياكة معطفٍ جديدٍ لحبيبتها الصغيرة هبة.. ثم تحرّك رسغها في رشاقه ليبدأ سرد حكاية زرقاء وانتظمت حركات الإبر المعدنية الكبيرة وهي تنسج مظهرا جديدا من مظاهر تفانيها وحبها..

و عندما سمعت الأم صوت الهاتف عرفت أن أحد الأولاد سيتولى الرد وأبت ان تترك ما في يديها إلا على الأقل بعد

الانتهاء من بضعة صفوف.. انتبهت لصوت ابنتها وهي تحيي صديقتها شيرين..

" البت شيرين دي قمر بشكل.. عينين خضرا ولا زرقا حلوة أوي ولا شعرها السايح اللي زي الدهب"

تمتمت اللأم وهي تتمنى من قلبها لو كانت هبة في مثل جمال هذه البنت..

"بس هبة شاطرة.. آه.. و شاطرة أوي كمان.. دي حلوة بس هبة أشطر منها"

نظرت لبضع الصفوف التي انتهت منها في زهوٍ وقالت:

"ده حينطق عليها.. الله هي سكتت ليه؟!!"

تعجبت ونظرت إلى الساعة لتجد أن المغرب قد حان..

"أكيد بتصلي.. يا سلام.. البت دي طلعالي بالظبط.. ما تسيبش فرض أنا مش عارفة العيال التانيين مش زيها ليه؟! اهديهم يا رب"

تذكرت صلاقما وتساءلت كم تبقى من الأيام حتى تعاود الصلاة وفرحت لاقتراب طُهرها.. كم تفتقد الصلاة وكم تشتاق إلى الارتماء على سجادهّا لتمرّغ جبهتها لله ساعة.. لتشكو إليه متاعب الدنيا وشوقها للقائه.. لتدعوه لهداية أبنائها ومسامحتها على ما مضى وما هو آت..

"يا خرابي!!! أما أكلم البت أختي دي ممكن تولد في أي لحظة وأنا ولا هنا"

تخلت عن خيوطها ووضعتها بحرص بجانبها على المنضدة الخشبية ذات الساق المعوجة وأمسكت سماعة الهاتف ووضعتها على أذنها وهمت أن تطلب الرقم عندما سمعت همس كلماتٍ كادت أن توقف قلبها الذي عرف صاحبة الصوت الملتاع حبـــًا وشوقًا للمسات صاحب الصوت الأجشّ الذي يصف بصوتٍ حارٍ تفاصيل عنفوانه وصلابته!!

شُرْفَةٌ خَلفيّةٌ

كالفار الذي وجد نفسه في ركن صغير ولا مفر...

لا مفر.. تريد أن تهرب من هذا المكان ولا مفر..

قد يحتجزنا السجان أو سننا الصغير أو نفسنُا القاصرة..

تطلعت إلى خِزانتها.. كم تودّ لو أخذت حقيبة ملابسها الصغيرة ورحلت عن هذا المكان..

كانت تفكر جديًا في الرحيل.. لكن استوقفها عدد الجنيهات التي سيطلبها السائق حتى يوصلها لبر الأمان..

لم ترَ مخرجا إلى الشارع إلا الشرفة الخلفية..

لن تطأها قدم أحد..

سينشغلان بحضن بعضهما.. لا.. طردَت خيالاتهما العابثة من رأسها واتخذت كرسيا رَحْبا لها سكنا..

"*هوا البحر حلو أوي*".. قالتها لنفسها وهي تغلق قليلاً عينيها اللتين تضربهما رياح بحر إسكندرية ضربًا حانيًا..

سرت قشعريرة في جسدها عندما تَقابل بردُ الليل البحري مع أكتافِها الساخنةِ من طول نومها تحت أشعة الشمس على الشاطئ ..

فكرت أن تدخلَ الغرفة ثانيةً لترتديَ شيئا يُدفئ الغصة التي خنقت حلقها..

لكنها لم تفعل.. وكأنه عقابٌ استلذته رفيقا لآلامها.. و كأنه خوفٌ من تحوّل الخيال العابث الذي دنّس نقاءَ عينيها إلى واقع..

تذكرت صوتَه حين اعترف..

تذكرت كيف ضَؤل وتضاءلت صورته..

استطعمت ملوحةَ دموعِها التي انهمرت على كتفه وهو يتساءل عما بها..

سؤالٌ عجيب.. عَجَبَ أفعالِه وأكثر..

شعرت بنقطة باردة استقرت على شفتها السُفلى من مجون موجةٍ أرادت تنبيهَها لقدمين تقتربان..

اختلست نظرة يمينية لترى ساقَــيْ *"صاحبتها الدلّوعة وهي ماشية تتمخطر"* وبراءة الأطفال في عينيها..

صحيح.. *"ما هي فعلا عيلة.. ستاشر سنة وتعمل كل ده؟؟"*

جلست بجانبها وقالت وقد تغيّر صوتُها الطفولي الذي ضحكت معه شهور صداقتهما إلى صوت أنثوي متمرس..

"انتي زعلانه؟؟ طيب زعلانة مني ولا منه؟؟

عشان خاطري ما تزعليش منه.. أنا السبب.. أنا اللي حبيت عاصم الأول واعترفت له بحبي.."

اختنق الدمع في عينيها وشفتيها وأناملها.. حاربت الدمع بكل أوصالها.. كم تكرهها الآن. تناديه هكذا أمامي.. ألا تخجل.. شعرت وكأن الدنيا التي تعرفها قد ملأها الكره وأرادت أن تنهال عليها ضرباً.. إلا أن شعورها أنها غريبة في ذلك المكان وأضعف من فيه خرس أصوات غضبها.

تساءلت الطفلة المعجزة وقد علت ابتسامة شريرة وجهها:

"إنتي مش بتردي عليا ليه؟؟ مش مصدقاني؟؟

عارفة البراميل بتاعة بلاج أوتيل فلسطين.. كنا بنعوم هناك.. ما قدرتش أمسك نفسي.. حضنته وقلت له إني بحبه.. مش غلطته.. صدقيني.."

انفجرت الدموع الساخنة.. انفجرت ينابيعُ الغضب..

تعالى صوتُها وتفوّق على صوتِ الموج الهادر

"إنتي غبية.. غبية... ليه.. إشمعنى ده؟

ستاشر سنة وخمسة وأربعين.. إزاي؟؟

بابايا؟؟؟"

بتلّو!

التصقت بكتف أمها، وقد تعالت شهقاتُها وصاحت..

ماما.. أنا خايفة يا ماما..

بنت.. عيب كده.. اقفي عدل!!

نظرت الفتاة لأمها وتماسكت.. شعرت أن قدمَيها ستتركانها وتجريان خوفاً من الكلب الذي وقف يتطلع إليها في صمت..

تذكرت ما كان يقوله لها أبيها دوماً..

لو الكلب حس إنك خايفه ممكن يهجم عليكي.. بُصّي له في عينه وهدّي نفسك حتلاقيه مشي بعيد

نظرت في عينَيْ الكلب لتجد عينيه دامعتين.. فيهما حزنٌ.. أشفقت عليه فهدأت نفسُها

واستقر قلبُها الذي كادت دقاتُه تخترق طبلة أذن أمها الواقفة بجانبها..

سمعت البائعُ يسأل أمها..

عايزة كام واحدة؟؟

لم ترد عليه الأم وأشارت له رقم ثلاثة بأصابعها..

تأففت الفتاةُ ونظرت لأمها نظرة معاتبة: "يعني كان لازم تنزليني من العربيه؟؟ كان لازم الفضايح دي.. بعدين هو إنت صغيرة؟ ما تنزلي إنتي تشتري.. هو أنا اللي مامتك ولا إنتي اللي مامتي؟!!"

نظرت لها أمها لتجد نظرة قرف تعلو وجه ابنتها وهي تنظر إليها

ضغطت الأم على أسنانها حتى سمع صوتها رئيس حي محطة الرمل ولكزت بنتها وقالت لها: "اتلمي... حسابك معايا في البيت"

"يىىىىى" ردت البنت في ملل.. ثم قالت:

"يللا.. قوليلو يجيب الحاجات دي ويللا"

قالت الأم بين أسنانها:

"الحاجة دي هي الحاجة الوحيدة العدلة اللي حتبقى دخلت بيتنا من كام يوم دلوقتي.. بلاش بواخة واتعدلي"

نظر البائع إليهما نظرة الخبير بأمرهما ثم قال للأم.. اتفضلي.. وناول الأم لفة مبتلة.. أخذتها منه متأففه وسألته..

ما فيش شنطة؟!

نفخ البائع في زهق ثم نادى مساعده ليأتيها بشنطة بلاستيك وضعتها هي بأناملَ جميلة لم تعتد حمل هذه الأشياء..

اتجهت الأم والابنه للسيارة وقد بدأت الأخيرة تختنق من البكاء..

وأجهشت به بمجرد قفلها للباب..

صرخت الأم..

إنتي بتعيطي ليه دلوقتي؟؟

يعني إيه بعيط ليه.. يعني عاجبك معاملة الراجل ده لينا؟

يعني أعمل إيه؟؟.. مضطرة.. استحملي بليز... بليز

ابتسمت الأم في محاولة لتطييب خاطر ابنتها وأمسكت المِقوَد وهي تقول بصوت مرح مصطنع:

ده أنا حاعملك شوية شوربة ع المواسير دي.. إنما إيه.. تحفة دي بتلّو!

تمت

الفهرس

